بسم الله الرحمن الرحيم

١٠ ـ سورة يونس

سميت به ، عليه السلام ، لتضمنها قوله[١] « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخيره ، وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب ـ قاله المهايميّ ـ .

وهذه السورة مكية ، واستثنى منها قوله تعالى[٢] : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ . . . » الآيتين . وقوله[٣] : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ . . . » الآية . قيل : نزلت فى اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين مكيّ ، والباقى مدنيّ ـ حكاه ابن الفرس والسخاويّ فى (جمال القراء) ـ .

وآياتها مائة وتسعة .

---

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [١٠ / يونس / ٩٤، ٩٥] .
(٣) [١٠ / يونس / ٤٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، تِلْكَ ءايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

« الر » مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى . أو اسمٌ للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى هذه السورة مسماة بـ (الر). والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده ، صارت فى حكم الحاضر ، كما يقال : هـذا ما اشترى فلان . أو النصب بتقدير : اقرأ .

وكلمة « تِلْكَ » إشارة إليها ، أما على تقدير كون (الر) مسرودة على نمط التعديد ، فقد نزّل حضور مادتها ، التى هى الحروف المذكورة ، منزلة ذكرها فأشير إليها ، كأنـه قيل : هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة ... الخ .

وأما على تقدير كونه اسماً للسورة ، فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها ، أو الأمر بقراءتها . وما فى اسم الإشارة من معنى البعد ، للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة ، ومحله الرفع على أنه مبتدأ ، خبره قوله تعالى :

« ءايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » ، وعلى تقدير كون (الر) مبتدأ ، فهو مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول . والمعنى : هى آيات مخصوصة منه ، مترجمة باسم مستقل . والمقصود ببيان بعضيتها منه ، وصفا بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة ، والصفات الكاملة .

والمراد بـ (الكتاب) : إما جميع القرآن العظيم ، وإن لم ينزل الكل حينئذ ، لاعتبار تعينه وتحققه فى علم الله تعالى ؛ وإما جميع القرآن النازل وقتئذ ، المتفاهم بين الناس إذ ذاك .

و (الحكيم) أى ذو الحكمة ، وإنما وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ، ونطقه بها ، أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه ، أو من باب الاستعارة المكنيّة المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ)

« أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ » الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه ، وإنما أنكر ذلك لكون سنة الله جارية أبداً على هذا الأسلوب فى الإيحاء إلى الرجال ، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه ، وعدم مناسبة حالهم لحاله ، ومنافاة ماجاء به لما اعتقدوه و(القدم) بمعنى السبق مجازاً ، لكونه سببه وآلته ، كما تطلق (اليد) على النعمة ، و (العين) على الجاسوس ، و (الرأس) على الرئيس . ثم إن السبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنوىّ إلى المنازل الرفيعة ، فهو مجاز بمرتبتين أو (القدم) بمعنى المقام ، كـ (مَقْعَدَ صِدْقٍ)[1] بإطلاق الحالّ وإرادة المحلّ ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة . وأصله (قدمٌ صدقٌ) أى محققة مقررة. وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ، ظاهراً وباطناً .

قال فى (الانتصاف) : ولم يرد فى سابقة السوء تسميتها (قدماً) إما لأن المجاز لايطرد ، وإما أن يكون مطرداً ، ولكن غلب العرف على قصرها ، كما يغلب فى الحقيقة .

« قَالَ الْكَافِرُونَ » وهم المتعجبون « إِنَّ هَٰذَا » أى الكتاب الحكيم « لَسِحْرٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر وقرئ (لَسَاحِرٌ) على أن الإشارة إلى الرسول صلوات الله عليه. وهو دليل عجزهم وأعترافهم ، وإن كانوا كاذبين فى تسميته سحراً ، وذلك لأن التعجب أولًا ، ثم التكلم بما هو معلوم الانتفاء قطعاً ، حتى عند نفس المعارض ، دأب العاجز المفحَم .

ثم بيّن تعالى بطلان تعجبهم ، وما بنوا عليه ، وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه ، وصحة ما أنكروه ، بالتنبيه على بعض ما يدل عليها من شؤون الخلق والتقدير ، ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير ، فقال سبحانه :

---

(١) [٥٤ / القمر / ٥٥] ،

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » قال البخارى[1] فى صحيحه فى الرد على الجهمية :

قال أبو العالية : استوى إلى السماء ارتفع . وقال مجاهد : استوى على العرش علا ، أى بلا تمثيل ولا تكييف . والعرش : هو الجسم المحيط بجميع الكائنات ، وهو أعظم المخلوقات. و (الأيام) قيل : كهذه ، وقيل : كل يوم كألف سنة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى يقضى ويقدر ، على حسب مقتضى الحكمة أمرَ الخلق كله . و « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » تقرير لعظمته وعز جلاله ، وردعلى من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . « ذٰلِكُمُ اللهُ » إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو « رَبُّكُمْ » أى الذى ربا كم لتعبدوه « فَاعْبُدُوهُ » أى وحّدوه بالعبادة . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى تتفكّرون أدنى تفكّر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبدونه .

---

(١) أخرجه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَاللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً » أى بالموت أو النشور . أى لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه. فاستعدوا للقائه « وَعْدَ اللهِ حَقًّا » أى صدقا . ثم علل وجوب المرجع إليه بقوله سبحانه : « إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ » أى من النطفة « ثُمَّ يُعِيدُهُ » أى بعد الموت « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ » أى بعدله أو بعدالتهم وقيامهم على العدل فى أمورهم، أو بإيمانهم، لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم ، وهو الأوجه لمقابلة قوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ » أى من ماء حارّ قد انتهى حره « وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » وجيع يخلص ألمه إلى قلوبهم « بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » تعليل لقوله ، لمقابلة قوله ، فإن معناه ليجزى الذين كفروا بشراب من حميم ، وعذاب أليم ، بسبب كفرهم ، لكنه غيّر النظم للمبالغة فى استحقاقهم للعقاب بجعله حقا مقررا لهم ، كما تفيده (اللام) وللتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة . والعقاب واقع بالعرَض بكسبهم ، وعلى أنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما لا تحيط العبارة به لفخامته وعظمته ، ولذلك لم يعينه .

ثم نبه تعالى ، للاستدلال على وحدته فى ربوبيته ، بآثار صنعه فى النيرين ، إثر الاستدلال بما مرّ من إبداع السموات والأرض ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً » للعالمين بالنهار « وَالْقَمَرَ نُورًا » أى لهم بالليل : والضياء أقوى من النور . «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ» الضمير لهما ، بتأويل كل واحد منهما ، أو للقمر ، وخص بما ذكر ، لكون منازله معلومة محسوسة ، وتعلق أحكام الشريعة به ، وكونه عمدة فى تواريخ العرب «لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» أى حساب الشهور والأيام ، مما نيط به المصالح فى المعاملات والتصرفات « مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى يبين الآيات التكوينية أو التنزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة فى إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها .

قال السيوطىّ : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ .

ثم نبه للاستدلال على وحدانيته سبحانه أيضاً بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)

« إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر « وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجبال والبحار وغير ذلك « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ » أى لآيات عظيمة دالة على وحدة مبدعها ، وكمال قدرته ، وبالغ حكمته . وخص (المتقين) لأنهم المنتفعون بنتائج التدبر فيها ، فإن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى ، والحذر من العاقبة .

تنبيه :

فى هذه الآيات إشارة إلى أن الذى أوجد هذه الآيات الباهرة ، وأودع فيها المنافع الظاهرة ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وأحسن كل شىء خلقه ، وميز الإنسان ، وعلمه البيان ـ يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته ، ليبلغ عنه شرائع عامة ، تحدد للناس سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم فى الآخرة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ)

[٨] أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٩] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[١٠] (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أى فلا يتوقعون الجزاء « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها « أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » أى بسببه ، إلى مأواهم ، وهى الجنة ، وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها ، وانسياق النفس إليها ، لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ » أى من تحت منازلهم أو بين أيديهم . « دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ » أى دعاؤهم هذا الكلام ، لأن (اللهم) نداء ، ومعناه : اللهم إنما نسبحك ، كقول القائل : اللهم إياك نعبد . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى ، كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى. ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره آية[1] (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى ما يحيي به بعضهم بعضاً ، أو تحية الملائكة إياهم ، كما فى قوله تعالى[2] : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) أو تحية الله عز وجل لهم ، كما فى قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) . و (التحية) التكرمة بالحالة الجلية . أصلها : أحياك الله حياة طيبة . و (السلام) بمعنى السلامة من كل مكروه . « وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ » أى وخاتمة دعائهم هو التسبيح « أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى حمده تعالى : والمراد من الآية أن دعاء أهل الجنة وعبادتهم هو قولهم . سبحانك اللهم وبحمدك . وإيثار التعبير عن (وبحمدك) ، بقوله : (وَءَاخِرُ) الخ رعاية للفواصل ، واهتماماً بالحمد وما معه من النعوت الجليلة ، تذكيراً بسماها . والآية تدل على سمو هذا الذكر ، لأنه دعاء أهل الجنة وذكر الملائكة كما قالوا[3] : (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)، ولذلك ندب قراءته بعد تكبيرة الإحرام .

قال الرازىّ لما استسعد أهل الجنة بذكر (سبحانك اللهم وبحمدك) ، وعاينوا ما فيه من السلامة عن الآفات والمخافات ، علموا أن كل هذه الأحوال السنية ، والمقامات القدسية ، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإتمامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء .

ولما بيّن تعالى وعيده الشديد ، أتبعه بما دل على أن من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة الدنيوية ، لأن حصوله فى الدنيا كالمانع من بقاء التكليف ، فقال تعالى :

---

(١) [١٩ / مريم / ٤٨] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣] .
(٣) [٣٦ / يس / ٥٨] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ » وهم الذين لا يرجون لقاءه تعالى لكفرهم « الشَّرَّ » أى الذى كانوا يستعجلون به ، فإنهم كانوا يقولون[1]: (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ونحو ذلك « اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » أى تعجيلا مثل استعجالهم الدعاء بالخير « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » أى لأُميتوا وأهلكوا « فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى ضلالهم وشركهم يترددون.

لطيفة :

زعم الزمخشرىّ أن معنى استعجالهم بالخير ، أى تعجيله لهم الخير . وضع الأول موضع الثانى إشعاراً بسرعة إجابته لهم ، وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم . وعندى أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع . ولا بلاغة فيه أيضاً ، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ليكونا من باب واحد ـ غير ضروىّ فى العربية ، والشواهد كثيرة.

وجوز الرازىّ أن يكون (يعجل) أصله يستعجل . عدل عنه تنزيهاً للجناب الأقدس عن وسف طلب العجلة ، فوصف بتكوينها ، ووصف الناس بطلبها ، لأنه الأليق .

ولعل الأليق أن (استعجالهم) مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، والتقدير ، ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلون به استعجالهم . وإنما حذف إيجازا ، للعلم به . ويوافقه قوله تعالى[2] (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) فإنه فى معنى ما هنا .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا » أى لكشفه وإزالته « لِجَنْبِهِ » حال من فاعل (دعا) واللام بمعنى (على) أى على جنبه ، أى مضطجعا « أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ » أى مضى على طريقته الأولى، « كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ » أى كشفه « مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الإعراض عن الذكر ، واتباع الشهوات . والآية سيقت احتجاجا على المشركين ، بما جبلوا عليه كغيرهم من الالتجاء إليه تعالى عند الشدائد ، علما بأنه لا يكشفها إلا هو ، ليطرحوا عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، ويستيقنوا أنه الإله الأحد ، الذى لا يعبد سواه . وفيها نعى عليهم سوء منقلبهم ، إثر كشف كرباتهم ، وتحذير من مثل صنيعهم .

ثم ذكرهم تعالى بعظيم قدرته مما وصل إليهم من نبأ الأقدمين ليتقوه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا » أى بالتكذيب والكفر « وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » أى فقرر عليهم الحجة بالوجوه الكثيرة . وما كانوا ليؤمنوا بتلك البينات ولا بغيرها ، فجزاهم بالإهلاك المعروف فيهم . « كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » الخطاب للذين بعث إليهم النبيّ ﷺ ، أى استخلفنا كم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لننظر كيف تعملون من خير أو شر ، فنعاملكم حسب عملكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش ، بأنهم إذا قرأ عليهم النبيّ ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة ، قالوا له : ائت بقرآن غير هذا ، أى جئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر . قال تعالى لنبيه : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي) : أى ليس ذلك إلىّ ، إنما أنا مبلغ عن الله تعالى .

قيل : إنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، للإيذان بأن استحالة ما اقترحوه أولًا ، من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها . وأن التصدى لذلك ، مع كونه ضائعا ، ربما يعدّ من قبيل المجاراة مع السفهاء ، إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء . ولأن ما يدل على استحالة

الثانى يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى . فهو جواب عن الأمرين بحسب المآل والحقيقة وقوله : (إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى) أى بالتبديل والنسخ من عند نفسى .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) استدل به مَنْ منع نسخ القرآن بالسنة . اهـ .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت. فما كان غرضهم، وهم أدهى الناس وأمكرهم، فى هذا الاقتراح ؟ قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك، وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر . وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ، ولاختبار الحال ، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه، أولا يهلكه فيسخروا منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحاً لا فتراءه على الله ـ انتهى ـ .

ولما بيّن بطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته ، أشار إلى تحقيق حقية القرآن، وكونه من عنده تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

قُل « لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُم » .

قال الزمخشرىّ : يعنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أمىّ لم يتعلم ولم يستمع ، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ فى بلد فيه علماء ، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً، يبهر كلّ كلام فصيح، ويعلو على كل منثور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ويكون ناطقاً بالغيوب التى لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شىء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه ، وألصقهم به .

«وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» أى ولا أعلمكم به على لسانى « فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ » أى من قبل نزوله ، لا أتعاطى شيئاً مما يتعلق بنحوه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان ، فتتهمونى باختراعه . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى فتعلموا أنه ليس إلا من الله ، لا من مثلى .

قال الزمخشرىّ : وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم (ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا) من إضافة الافتراء إليه .

تنبيه :

رأى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام ، لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم ، واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى ، وامتناع الاستبداد بالرأى ، من غير تعرض هناك ولا ههنا ، لكون القرآن فى نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ، ولا لكونه عليه السلام غير قادر على الإتيان بمثله ، أن يستشهد ههنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة فى تلك المدة المتطاولة ، من كمال نزاهته عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق أحد كائناً من كان ، كما ينبئ عنه تعقيبه بتظليم المفترى على الله تعالى . والمعنى : قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحى ، لا أتعرض لأحدقط بتحكم ولا جدال ، ولا أحوم حول مقال فيه شائبه شبهة ، فضلًا عما فيه كذب أو افتراء ، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطّرد فى هذا العهد البعيد ، مستحيل أن يفترى على الله ، ويتحكم على الخلق كافة ، بالأوامر والنواهى الموجبة لسفك الدماء ، وسلب الأموال ، ونحو ذلك . وأن ما أتى به وحى مبين ، تنزيل من رب العلمين ـ انتهى ـ .

وما استنسبه رحمه الله ، اقتصر عليه ابن كثير ، ثم استشهد بقول [1] هرقل ملك الروم

(١) الحديث أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ـ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع .

لأبي سفيان ، فيما سأله من صفة النبيّ ﷺ ، قال هرقل له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت : لا ! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ماشهدت به الأعداء * فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله .

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشيّ ملك الحبشة[1] : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .

وعن ابن المسيّب : ثلاثاً وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » استفهام إنكاريّ معناه الجحد . أي لا أحد أظلم ممن تقوّل على الله تعالى ، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه ، أو كفر بآياته ، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ، وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ » أي لا ينجون من محذور ، ولا يظفرون بمطلوب . ونظير هذه الآية قوله تعالى[2] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ) . وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي ، وعدُه صادق بلا مرية ، فإن مفتريه يبوء بالخزي والنكال ، ولا يشتبه أمره على أحد بحال .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٠٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ١٧٤٠ (طبعة المعارف) . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

وقد ذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب ـ وكان صديقاً له فى الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ ـ فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ! وما ذا أنزل على صاحبكم ـ يعنى رسول الله ﷺ ـ فى هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة . فقال . وما هى ؟ فقال[1] : وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ ... الخ ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل علىّ مثله ! فقال:وماهو ؟ فقال : ياوبر ياوبر . إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر !! كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله ! إنك لتعلم أنى أعلم أنك لكذاب !

وقال عبد الله بن سلام[2]: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس ، فكنت فيمن انجفل منه ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : فكان أول ما سمعته : يقول : أيها الناس ! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قال حسان[3] :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ » أى الأوثان التى هى جماد

(١) [١٠٣ / العصر / ١ ـ ٣] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٣٢ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب الإقامة ، ١٧٤ ـ باب ما جاء فى قيام الليل ، حديث رقم ١٣٣٤ (طبعتنا) . (٣) ليس فى ديوان حسان .

لا تقدر على نفع ولا ضرّ ، أى ومن شأن المعبود القدرة على ذلك . « وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ » أى أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له ـ وهو العالم المحيط بجميع المعلومات ـ لم يكن موجوداً ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه .

فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل ، فكأنهم يخبرونه بشىء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه .

وقوله : (فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) تأكيد لنفيه ، لأن مالم يوجد فيهما فهو منتف معدوم ـ كذا فى الكشاف ـ « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم .

ثم أشار تعالى إلى أن التوحيد والإسلام ملة قديمة كان عليها الناس أجمع ، فطرة وتشريعاً ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنفاء متفقين على ملة واحدة ، وهى فطرة الإسلام والتوحيد التى فطر عليها كل أحد « فَاخْتَلَفُوا » باتباع الهوى وعبادة الأصنام ، فالشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة صرفاً للناس عن وجهة التوحيد ، ولذلك بعث الله الرسل بآياته وحججه البالغة ، ليهلك[1] من هلك عن بيّنة ، ويحيى من حيّ عن بيّنة «وَلَوْلَا

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤٢] .

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » أى بتأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى عاجلاً فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل ، بإبقاء المحق ، وإهلاك المبطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى من الآيات التى اقترحوها تعنتاً وعناداً ، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة ، التى لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة غريبة فى الآيات . « فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » أى هو المختص بعلم الغيب ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لأحد به . يعنى أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيّب لا يعلمه إلا هو .

« فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ » أى فيما يقضيه الله تعالى فى عاقبة تعنتكم ، فإن العاقبة للمتقين . وقد قال تعالى فى آية أخرى[1] (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) . وقال تعالى[2] (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ) . وقال تعالى[3] (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) أى فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا لمقترحهم ، لفرط عنادهم . ولا يخفى أن القرآن الكريم لما قام به الدليل القاهر على صدق نبوته ، عليه السلام ، لإعجازه ، كان طلب آية أخرى سواه من مقترحهم ـ مما لا حاجة له فى صحة نبوته ، وتقرير رسالته . فمثلها يكون مفوضاً إلى مشيئته تعالى ، فتردّ إلى غيبه ، وسواء أنزلت أو لا ، فقد ثبتت نبوته ، ووضحت رسالته ، صلوات الله عليه .

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] . (٢) [١٠ / يونس / ٩٦و٩٧] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٧] .

ثم أكد تعالى ما هم عليه من العناد واللجاج، مشيرا إلى أنهم لا يُذعنون ولو أجيبوا المقترحهم، بما يعهدمنهم من عدولهم عنه تعالى بعد كشفهم ضرهم ، إلى الإشراك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِى ءَايَاتِنَا، قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ» أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم « إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِى ءَايَاتِنَا » أى يتبين مكرهم ويظهر كامن شركهم ، فهم فى وقت الضراء فى الإقبال عليه تعالى لكشفها ، كالمخادع الذى يظهر خلاف ما يبطن ، ثم ينجلى أمره بعد : « قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا » أى عقوبة ، أى عذابه أسرع وصولا إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق . وتسمية العقوبة بالمكر ، لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً . « إِنَّ رُسُلَنَا » أى الذين يحفظون أعمالكم « يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ » أى مكركم ، أو ما تمكرونه . وهو تحقيق للانتقام ، وتنبيه على أن ما دبروا فى إخفائه غير خاف على الحفظة، فضلا عن العليم الخبير .

ثم بين تعالى نوعا من أنواع مكرهم فى آية إنجائهم من لجج البحر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ » أى السفن

« وَجَرَيْنَ » أى السفن « بِهِمْ » أى بالذين فيها « بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » أى لينة الهبوب ، موافقة للمرغوب « وَفَرِحُوا بِهَا » لأمن الآيات « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » أى ذات شدة « وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » أى أحاط بهم أسباب الهلاك ، وهى شدة الموج والريح « دَعَوُا اللَّهَ » أى للتخلص منها « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » وهو الدعاء لأنهم حينئذ لا يدعون معه غيره « لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أى العابدين لك شكراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

« فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى يفسدون فيها ، ويسارعون إلى ما كانوا عليه من الشرك ونحوه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أى الفاسين نعمة الخلاص بالإخلاص واستجابة الدعاء « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » أى وباله عليكم . « مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبر محذوف أو هو متاع . أو خبر ثان أو هو الخبر لـ (بغيكم .) و(على) متعلق به . وقرئ بالنصب مصدر لمحذوف ، أى تمتعكم . أو مفعول به له . أى تبغون . « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا وهو وعيد بجزائهم على البغى .

ثم بيّن تعالى شأن الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى امتزج به لسريانه فيه ، فالباء للمصاحبة ، أو هى للسببية، أى اختلط بسببه حتى خالط بعضه بعضاً، أى التف بعضه ببعض ، والأول أظهر « مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ » من الزروع والثمار والكلأ والحشيش « حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا » أى حسنها وبهجتها «وَازَّيَّنَتْ» أى بأصناف النبات « وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا » أى متمكنون من تحصيل حبوبها وثمارها وحصدها « أَتَاهَا أَمْرُنَا » أى عذابنا « لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا » أى كالمحصود من أصله « كَأَنْ لَمْ تَغْنَ » أى لم تنبت « بِالْأَمْسِ » أى قبيل ذلك الوقت . و (الأمس) مَثَلٌ فى الوقت القريب « كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى بالأمثلة تقريباً « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى معانيها .

تنبيه :

قال القاشانىّ : البغى ضد العدل ، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهيأة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبغى لا يكون إلا عن غاية الانهماك فى الرذائل ، بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها فى غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة (١) . فلهذا قال : (عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ) لا على المظلوم ، لأن المظلوم

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٨ ـ باب الظلم ظلمات =

سعد به ، وشقى الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا متاع الحياة الدنيا . إذ جميع الإفراطات والتفريطات المقابلة للعدالة تمتعات طبيعية ، ولذّات حيوانية ، تنقضى بانقضاء الحياة الحسّية التى مثلها فى سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذى مثل به ، من تزيّن الأرض بزخرفها من ماء المطر ، ثم فسادها ببعض الآفات سريعا قبل الانتفاع بنباتها ، ثم تتبعها الشقاوة الأبدية ، والعذاب الأليم الدائم .

وفى الحديث[1] : أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة ، لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذى يحتمله حق الله تعالى .

وسمعت بعض المشايخ يقول : فلما يبلغ الظالم والفاسق أوان الشيخوخة ، وذلك لمبارزتهما الله تعالى فى هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضبطه ، ومخالفتهما إياه فى حكمته وعدله . انتهى .

ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها ، رغّب فى الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أى من الآفات والنقائص ، لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات كما مرّ ، فقال سبحانه :

= يوم القيامة ، حديث ١٢٠٤ .

ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٧ (طبعتنا) .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٢٣ ـ باب البغى ، حديث رقم ٤٢١٢ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[٢٦] (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ » أى يدعو الخلق بتوحيده إلى جنته « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى دين قيم يرضاه ، وهو الإسلام .

« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » أى للذين أحسنوا النظر ، فعرفوا مكر الدنيا والشهوات ، فأعرضوا عنها ، وتوجهوا إلى الله تعالى ، فعبدوه كأنهم يرونه ، المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، وزيادة على المثوبة ، وهى التفضل كما قال تعالى[1] : (وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) . وأعظم أنواعه النظر إلى وجهه تعالى الكريم . ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين . ورفعها ابن جرير إلى النبىّ صلوات الله عليه ، عن أبى موسى وكعب ابن عجرة ، وأُبَىّ . وكذا ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد[2] عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ...) الخ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى منادٍ : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ماهو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه . فوالله ! ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم . وهكذا رواه مسلم[3] .

(١) [٤/النساء/١٧٣]و[٢٤/النور/ ٣٨]و[٣٥/فاطر/ ٣٠]و[٤٢/الشورى/٢٦].

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ (طبعتنا) .

« وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ » أى لايغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات « وَلاَ ذِلَّةٌ » أى أثر هوان ، وكسوف بال ، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى .

قال الناصر : وفى تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة ، فإن فيه تنبيها على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى ، فجدير بهم أن لايرهق وجوههم قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ؛ عكس المحرومين المحجوبين ، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد ، وذلة البعد .

وقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى الذين أحسنوا « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أى الشرك والمعاصى « جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى واق يقيهم العذاب « كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ » أى ألبست « وُجُوهُهُمْ قِطَعاً » أى أجزاء « مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً » لفرط سوادها وظلمتها . وذلك لارتكابهم الهيأة المظلمة من الميول الطبيعية ، والأعمال الردية والقصد الإخبار بأبدع تشبيه عن سواد وجوههم . وقد ذكر هذا المعنى فى غير ما آية « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم بين تعالى ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والخزى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً » يعنى المشركين ومعبوداتهم للمقاولة بينهم ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا » أى معبوديهم بالله ، مع توقعهم الشفاعة منهم « مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ » أى الزموا مكانكم ، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم .

قال القاشانىّ : معناه قفوا مع ما وقفوا معه فى الموقف من قطع الوصل والأسباب التى هى سبب محبتهم وعبادتهم ، وتبرؤ المعبودمن العابد لانقطاع الأغراض الطبيعية التى توجب تلك الوُصَل .

ومعنى قوله : « فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » أى مع كونهم فى الموقف معاً ، فرقنا بينهم ، وقطعنا الوُصَل التى بينهم ، فلا يبقى من العابدين توقع شفاعة ، ولا من المعبودين إفادتها ، لو أمكنتهم « وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ » إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا ، بل عن أمر الشيطان ، فكنتم عابديه بالحقيقة ، بطاعتكم إياه ، وعابدى ما اخترعتموه فى أوهامكم من أباطيل فاسدة ، وأمانىّ كاذبة .

قيل : القول مجاز عن تبرئهم من عبادتهم ، وأنهم عبدوا أهواءهم وشياطينهم ، لأنها الآمرة لهم دونهم ، لأن الأوثان جمادات وهى لا تنطق . وقيل : ينطقها (اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ) [1] ، فتشافههم بذلك ، مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها .

---

(١) [٤١ / فصلت / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ)

« فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ » أى انا « لَغَافِلِينَ » أى الله يعلم أنا ما أمرنا كم بذلك وما أردنا عبادتكم إيانا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« هُنَالِكَ » أى فى ذلك المقام المدهش ، حين قطع المواصلة ، وإنكار الشركاء العبادة « تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ » أى تختبر وتذوق كل نفس ما أسلفت من العمل ، فتعاين أثره من قبح وحسن ، وردّ وقبول ، كما يختبر الرجل الشىء ويعرفه ، ليكتفه حاله . وهذا كقوله تعالى [١] : (يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) وقوله [٢] (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ).

« وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » الضمير للذين أشركوا ، أى ردوا إلى الله المتولى جزاءهم بالعدل والقسط « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى ضاع عنهم ما افتروه من اختراعاتهم ، وأصول دينهم ومذهبهم ، وتوهماتهم الكاذبة ، وأمانيهم الباطلة . أى ظهر ضياعه وضلاله ، فلم يبق له أثر فيهم .

وفى هذه الآية تبكيت شديد للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضى به ، ولا أراده ، بل تبرأ منهم ، أحوج ما يكونون إلى المعونة . والمشركون أنواع وأقسام ، وقد ذكرهم تعالى فى كتابه ، وبين أحوالهم ، ورد عليهم أتم رد .

ثم احتج على المشركين على وحدانيته باعترافهم بربوبيته وحده بقوله سبحانه وتعالى :

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [٨٦ / الطارق / ٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » بالإمطار والإنبات وهل يمكن إلا ممن له التصرف العام فيهما « أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة ، كقوله تعالى[1] : (قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) .

« وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » يعنى النسمة من النطفة ، أو الطير من البيضة ، أو السنبلة من الحب ، (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر . وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر أو الكافر من المؤمن . « وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى ومن يلى تدبير أمر العالم كله ، بيده ملكوت كل شىء ، تعميم بعد تخصيص . « فَسَيَقُولُونَ اللهُ » إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه « فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى أفلا تخافون بعد اعترافكم ، من غضبه لعبادة غيره اتباعاً للهوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)

« فَذَٰلِكُمُ » إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله « اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ » الثابت وحدانيته ثباتاً لا ريب فيه ، لمن حقق النظر « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال . أى فما بعد حقيّة ربوبيته إلا بطلان ربوبية ما سواه ، وعبادة غيره ، انفراداً أو شركة « فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » أى عن الحق

(١) [٦٧ / الملك / ٢٣] .

الذى هو التوحيد ، إلى الضلال الذى هو الشرك ، وأنتم تعترفون بأنه الخالق كل شيء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى ثبت حكمه وقضاؤه على الذين تمردوا فى كفرهم ؛ وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه. وقوله (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بدل من الكلمة ، أى حق عليهم انتفاء الإيمان . وعلم الله منهم ذلك . أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب ، و(أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) تعليل بمعنى (لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ـ أفاده الزمخشرى ـ أى كقوله تعالى(١) (قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقوله تعالى(٢): (أَفَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) قيل: (الَّذِينَ فَسَقُوا) مظهر وضع موضع ضمير المخاطبين للإشعار بالعلية ، و (الفسق) هنا التمرد فى الكفر ، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم ، لتمردهم فى كفرهم ، ولأنهم لا يؤمنون ، وهو تكرار . وأجيب بأنه تصريح بما علم ضمناً من (الذين فسقوا) ، أو دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردين فى الكفر بسبب انتفاء الإيمان .

ثم احتج أيضاً على حقية التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى ، من بدء الخلق وإعادته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٤] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أى من يبدؤه من النطفة ، ويجعل فيه الروح ليتعرف إليه ، ويستعمله أعمالاً ، ثم يحييه يوم القيامة ، ليجزيه بما أسلف

(١) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٢) [٣٩ / الزمر / ١٩] .

فى أيامه الخالية . وإنما نظمت الإعادة فى سلك الاحتجاج ، مع عدم اعترافهم بها ، إيذاناً بظهور برهانها ، للأداة القائمة عليها سمعاً وعقلاً ، وإن إنكارها مكابرة وعنادا لا يلتفت إليه ، وإشعاراً بتلازم البدء والإعادة وجوداً وعدما ، يستلزم الاعترافُ به الاعترافَ بها . ثم أُمِر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك ، فقيل له : « قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » أى فكيف تصرفون إلى عبادة الغير ، مع عجزه عما ذكر . ثم احتج عليهم أيضا ، إفحاما إثر إفحام ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ » أى بوجه من الوجوه ، كبعثة الرسل ، وإيتاء العقل ، وتمكين النظر فى آيات الكون ، والتوفيق للتدبر . « قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي لِلْحَقِّ » وهو تبارك وتعالى ـ « أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ » أى يعبد ويطاع « أَمَّن لَّا يَهِدِّي » أى إلا أن يهديه الله تعالى ـ نزل منزلة من يعقل لإفحامهم ـ وقيل معناه : أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن ينقل . أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء ، إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً ، فيهديه . وقد قرئ (أَمَّنْ لَا يَهَدِّي) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، أصله يهتدى ، أدغمت التاء فى الدال ، ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء ؛ وقرئ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، لأنه لما نقلت الحركة التقى ساكنان ، فكسر أولهما للتخلص من التقائهما ، وقرئ بسكون

الهاء وبتخفيف الدال، على معنى (يهتدى) . والعرب تقول : يهدى بمعنى يهتدى . يقال : هديته فهدى أى اهتدى .

وقوله تعالى : « فَمَا لَكُمْ » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والتعجب . أى : أىُّ شىءٍ لكم فى اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم ، فضلاً عن هداية غيرهم ، شركاء . وقوله : « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » مستأنف ، أى كيف تحكمون بالباطل ، حيث تزعمون أنهم أنداد الله ؟ !

....

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ » أى فى اعتقادهم ألوهية الأصنام « إِلَّا ظَنًّا » اعتقاداً غير مستند لبرهان ، بل لخيالات فارغة ، وأقيسة فاسدة . والمراد بـ (الأكثر) : الجميع . « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ » أى من العلم والاعتقاد الحق « شَيْئًا » أى من الإغناء . و (شيئاً) فى موضع المصدر ، أى غناء ما . أو مفعول لـ (يغنى) ، و (مِنَ الْحَقِّ) حال منه . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » وعيد على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن البرهان .

تنبيه :

قال الرازى فى هذه الآية :

اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ، ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن . فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) (١) وعن موسى عليه السلام مثله فقال : (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)(٢) . وأمر محمداً ﷺ بذلك فقال : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٥٠]

فسوّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى)[١] . وهو فى الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وروح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضاً، لما ذكر دليل الخلق فى الآية الأولى وهو قوله[٢]: (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » أتبعه بدليل الهداية فى هذه الآية . والمقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى[٣] : (وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، وهذا كان كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنما أعطى الحواس ، لتكون آلة فى اكتساب المعارف والعلوم . وأيضاً ، فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم ، أولمس شيء من الكيفيات الملموسة. أما الأحوال الروحانية، والمعارف الإلهية. فإنها كمالات باقية أبد الآباد ، مصونة عن الكون والفساد . فعلمنا أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية . ولاضطراب العقول وتشعب الأفكار كانت الهداية وإدراك الحق بإعانته تعالى وحده . والهداية إماأن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، أو عن تحصيل معرفتها . وعلى كلٍّ فقد بينا أنها أشرف المراتب ، وأعلى السعادات ، وأنها ليست إلا منه تعالى . وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها فى الدعوة إلى الحق ، ولا فى الإرشاد إلى الصدق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات فى الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الكمالات فى النفس والجسد ، وأن الأصنام لا تأثير لها فى شيء من ذلك، وإذا كان كذلك ، كانت عبادتها جهلاً محضاً ، وسفهاً صرفاً . فهذا حاصل الكلام فى هذا الاستدلال . اهـ .

ثم بين تعالى حقيّة هذا الوحى المنزل ، رجوعاً إلى ما افتتحت به السورة من صدق نبوة المنزَل عليه ، ودلائلها فى آيات الله الكونية ، والمنبئة عن عظيم قدرته ، وجليل عنايته ، بهداية بريته ، فقال تعالى :

---

(١) [٨٧ / الأعلى / ١ــ٣] . (٢) [١٧ / النمل/ ٦٤] . (٣) [١٦ / النحل /٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْـكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ » لامتناع ذلك؛ إذ ليس لمن دونه تعالى كمال قدرته التى بها عموم الإعجاز « وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ » أى مصدقاً للتوراة والإنجيل والزبور بالتوحيد ، وصفة النبىّ ﷺ . و (تصديق) منصوب على أنه خبر (كان) أو علة لمحذوف ، أى أنزله تصديقَ الخ . وقرئ بالرفع خبراً لمحذوفٍ ، أى : هو تصديق الذى بين يديه . أى وبذلك يتعين كونه من الله تعالى ، لأنه لم يقرأها ، ولم يجالس أهلها ، « وَتَفْصِيلَ الْـكِتَابِ » أى وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله[1] (كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ) كما قال علىّ رضى الله عنه[2] : فيه خبر ماقبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم . « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منتفياً عنه الريب ، كائناً من رب العالمين ، أخبار أخر لما قبلها .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، بعد المنع عن اتباع الظن ، لبيان ما يجب اتباعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى بل أيقولون . فـ (أم) منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة) عند الجمهور ، والهمزة للإنكار . أى ما كان ينبغى ذلك . وقيل : متصلة ، ومعادلها

(١) [٤ / النساء / ٢٤] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٤ ـ باب ما جاء فى فضل القرآن .

مقدر . أى أيقرون به بعد ما بيّنا من حقيقته أم يقولون افتراء . « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ » أى إن كان الأمر كما تزعمون ، فأتوا ، على وجه الافتراء ، بسورة مثله فى البلاغة ، وحسن الصياغة ، وقوة المعنى ، فأنتم مثل فى العربية والفصاحة ، وأشد تمرنا فى النظم « وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى ادعوا من دونه تعالى ، ما استطعتم من خلقه ، للاستعانة به على الإتيان بمثله ـ إن صدقتم فى أنى اختلقته ـ فإنه لا يقدر عليه أحد .

قال أبو السعود : وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء ، للتنصيص على براءتهم منه تعالى ، وكونهم فى عدوة المضادّة والمشاقّة ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كُلِّفوه ، فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٩](بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل. أى سارعوا إلى التكذيب به ، وفاجؤوه فى بديهة السماع ، وقبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ، ويقفوا على تأويله ومعانيه وما فى تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم . كالناشىء على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة ، وبيان الاستقامة ، أنكرها

فى أول وهلة ، واشمأز منها ، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب . وسر التعبير (بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) الإيذان بكمال جهلهم به ، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به ـ كذا فى الكشاف وأبى السعود ـ .

« وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » أى بيان ما يؤول إليه ، مما توعدهم فيه . وهذا المعنى هو الصحيح فى الآية ، وقد مشى عليه غير واحد .

قال فى (تنوير الاقتباس) : أى عاقبة ما وعدهم فى القرآن .

وقال الجلال : أى عاقبة ما فيه من الوعيد .

وقال القاشانىّ : تأويله : أى ظهور ما أشار إليه فى مواعيده ، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه ، فلا يمكنهم التكذيب ، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه .

« كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى بآيات الرسل ، قبل التدبر فى معانيها .

« فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » أى من هلاكهم بسبب تكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٠] (وَمِنْهُم مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ

[٤١] وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

[٤٢] (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ » أى يصدق به فى نفسه ، ولكن يكابر بالتكذيب

« وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » .

« وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ » أى إن أصروا على تكذيبك ، فتبرأ منهم ، فقد أعذرت .

ثم أشار إلى أنهم ممن طبع على قلوبهم بقوله تعالى : « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » أى إذا قرأت القرآن « أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ » أبرزهم فى عدم انتفاعهم بسماعهم ، لكونهم لا يعون ولا يقبلون ، بصورة الصم المعتوهين : أى أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه دوىّ الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ،أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ » كذلك أبرزهم ، لعدم انتفاعهم بمشاهدة أدلة الصدق وأعلام النبوة ، بصورة العمى المضموم إلى عماهم فقد البصيرة . أى أتحب هداية من كان كذلك ؟ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظن ، أما مع الحمق فجهد البلاء . يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » بتعذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ،ومن غير أن يكونوا سليمى الحواس والمدارك ، فإنه لعدله لا يفعل ذلك . « وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حاساتهم ومداركهم فيما خلقت له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ » أى شيئاً قليلاً « يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ » أى يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ » أى بالبعث بعد الموت « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى من الكفر والضلالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ)

[٤٧] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ » أى من العذاب « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل ذلك « فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى فننجزهم ما وعدناهم كيفما دار الحال « ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » أى من مساوئ الأفعال .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ » أى منهم ، أرسل لهدايتهم ، وتزكيتهم بما يصلحهم « فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ » أى فبلّغهم ما أرسل به فكذبوه « قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل ، فأنجى الرسول وأتباعه ، وعذب مكذبوه « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم ، لأنه من نتائج أعمالهم .

وقال القاشانىّ فى قوله تعالى (قُضِيَ بَيْنَهُمْ) : أى بهداية من اهتدى منهم ، وضلالة

من ضل ، وسعادة من سعد ، وشقاوة من شقى ، لظهور ذلك بوجوده ، وطاعة بعضهم إياه لقربه منه ، وإنكار بعضهم له لبعده عنه . أو قضى بينهم بإنجاء من اهتدى به وإثابته ، وإهلاك من ضل وتعذيبه ، لظهور أسباب ذلك بوجوده ـ انتهى ـ .

فالآية على هذا كقوله تعالى [١] : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وجوز أن يكون المعنى : لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه ، وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، قضى بينهم بإنجاء المؤمنين ، وعقاب الكافرين . كقوله تعالى [٢] : (وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٤٩] (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ » استبعادا له ، واستهزاء به « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنه يأتينا . ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبىّ صلوات الله عليه . قيل : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى مع أن ذلك أقرب حصولا ، فكيف أملك لكم حتى أستعجل فى جلب العذاب لكم ، وتقديم الضر ، لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه . وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تعميما . والمعنى لا أملك شيئاً ما .

« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى أن أملكه . أو لكن ما شاء الله كائن ، فالاستثناء متصل أو منقطع . وصوب أبو السعود الثانى ، بأن الأول يأباه مقام التبرؤ من أن يكون ، عليه الصلاة والصلام ، له دخل فى إتيان الوعد . وَبَسَطَ تقريره .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

وأفاد بعض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار ، كما فى هذه الآية ، وقوله [1] : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) قال : والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى ، لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل . اهـ . وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه .

وقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قال القاشانى : درّجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة الله ، ليعرفوا آثار القيامة . ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هى بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله : (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . .) الآية ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ » أى الذى تستعجلون به « بَيَاتًا » أى ليلا « أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ » أى ولا شىء منه بمرغوب البتة .

لطائف :

الأولى ـ (أرأيت) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية ، وهو أصل وضعه . ثم استعملوه بمعنى (أخبرنى) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية . فالتقدير : أأبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفتها ؟ فأخبرنى عنها . ولذا لم يستعمل فى غير الأمر العجيب . ولما كانت رؤية الشىء سبباً لمعرفته ، ومعرفته سببا للإخبار عنه ، أطلق السبب القريب

---

(١) [١١ / هود / ١٠٧] .

أو البعيد، وأريد مسببه ، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير ، أو التضمين كما ذهب إليه أبو حيان ـ كذا فى (العناية) .

الثانية ـ سر إيثار (بياتاً) على (ليلا) مع ظهور التقابل فيه ، الإشعار بالنوم والغفلة ، وكونه الوقت الذى يبيت فيه العدوّ ، ويتوقع فيه ، ويغتنم فرصة غفلته . وليس فى مفهوم الليل هذا المعنى ، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش ، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما فى النهار . أو النهار كله محل الغفلة ، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء، أو زمان قيلولة . كما فى قوله[1] (بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) بخلاف الليل ، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه ، وهو وقت البيات ، فلذا خص بالذكر دون النهار . و (البيات) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ، لا بمعنى البيتوتة .

الثالثة ـ قيل : إن استعجالهم العذاب ، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء ، دون ظاهره ، فورود (ما) هنا فى الجواب على الأسلوب الحكيم . لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعود منه تعالى ، وأنه افتراء ، فطلبوا منه تعيين وقته تهكما وسخرية، فقال فى جوابهم هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقرًّا بأنى مثلكم ، وأنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، فكيف أدعى ما ليس لى به حق؟ ثم شرع فى الجواب الصحيح،ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم ـ أفاده الطيبى ـ .

الرابعة ـ سر إيثار (مَا ذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) على (مَا ذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعاً من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلاعن أن يستعجله ـ كذا فى (الكشاف) ـ .

قال فى (الانتصاف) : وفى هذا النوع البليغ نكتتان :

إحداهما : وضع الظاهر مكان المضمر .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤] .

والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر .

وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ، آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ).

« أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ » إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة، داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حكما، تحت القول المأمور به . أى : أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة ، ءامنتم به حين لا ينفعكم الإيمان ؟ إنكاراً لتأخيره إلى هذا الحد ، وإيذاناً باستتباعه للندم والحسرة ، ليقلعوا عما هم عليه من العناد ، ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الفوات ـ أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » على إرادة القول . أى : قيل لهم إذا ءامنوا بعد معاينة العذاب (آلْآنَ ءَامَنْتُمْ بِهِ) ؟ وذلك إنكارا للتأخير ، وتوبيخا عليه . وسر وضع (تستعجلون) موضع (تكذبون) الذى يقتضيه الظاهر ، الإشارة إلى أن المراد به الاستعجال السابق ، وهو التكذيب والاستهزاء ، استحضارا لمقالتهم فهو أبلغ من (تكذبون) .

وقيل : الاستعجال كناية عن التكذيب ، وفائدة هذه الحال استحضارها . هذا ما ذكروه ، ولا مانع من بقاء الاستعجال على حقيقته ، يدل عليه آية[1] : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ...) الخ فهم مع تهكمهم رضوا بأن يعاينوا آية يعذبون بها ، لما فى قلوبهم من مرض العناد العضال ، والجهل المصم المعمى ، ولذلك أجيبوا بأن العذاب هل فيه ما يستعجل منه . أى فمثل هذا الاستعجال لا يصدر ممن

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢].

له مسكة من عقل ، إذ لا يستعجل إلا ما يرجى خيره ، ثم أعلمهم بعدم فائدة إيمانهم وقتئذ ، وما يوبخون به ، إنكارا للتأخير ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » أى أشركوا « ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ » فى الآخرة « إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أى تقولون وتعملون فى الدنيا .

« وَيَسْتَنْبِئُونَكَ » أى يستخبرونك « أَحَقٌّ هُوَ » أى الوعد بعذاب الخلد ، أوادعاء النبوة أو القرآن « قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بفائتين العذاب . فهو لاحقٌ بكم لا محالة . من (أعجزه) الشىء إذا فاته . ويصح كونه من (أعجزه) بمعنى وجده عاجزاً . أى : ما أنتم بواجدى العذاب أو من يوقعه بكم عاجزاً عن إدراككم ، وإيقاعه بكم .

لطائف :

الأولى ـ دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم ، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن ، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه ، مما يصدعهم به .

الثانية ـ إنما أمر بالقسم لاستثبالهم ، وللجرى على ماهو المألوف فى المحاورة ، من تحقيق المدعى ، فإن من أقسم على خير ، فقد كساه حلة الجد ، وخلع عنه لباس الهزل[1] (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) .

(١) [٨٦ / الطارق / ١٣و١٤] .

الثالثة ـ لما كانت الناس طبقات ، كان منهم من لايسلم إلا ببرهان حقيقيّ ، ومنهم من لا ينتفع به ، ويسلم إلا بالأمور الإقناعية ، نحو القسم ، كالأعرابيّ[1] الذى قدم على النبيّ ﷺ ، وسأله عن رسالته وبعثه ، وأنشده بالذى بعثه ، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه : اللهم نعم ، فقال : آمنت بما جئت به وأنا رسول مَن ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة ـ رواه البخاريّ فى أوائل كتاب العلم ـ.

الرابعة ـ قال ابن كثير : هذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ[2] : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وفى التغابن[3] (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) ـ انتهى ـ.

وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) قال : وحلف ﷺ فى أكثر من ثمانين موضعاً ، وأمره الله سبحانه بالحلف فى ثلاثة مواضع ، ثم ذكر هذه الآيات ، ثم قال : وكان إسماعيل بن إسحاق القاضى يذاكر أبا بكر بن داود الظاهرىّ ولا يسميه بالفقيه ـ فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له فتوجهت اليمين على أبى بكر ابن داود ، فتهيأ للحلف ، فقال له القاضى إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما يمنعنى عن الحلف ، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف فى ثلاثة مواضع من كتابه ؟ قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم . انتهى .

---

(١) إنه لحديث جليل وطويل فانظره فى صحيح البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٦ ـ باب ما جاء فى العلم وقوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ، حديث رقم ٥٥ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٣) [٦٤ / التغابن / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ » أى بالشرك بالله، أو التعدى على الغير ، أو مطلقاً « مَا فِي الْأَرْضِ » أى من الأموال « لَافْتَدَتْ بِهِ » أى لجعلته فدية لها من العذاب « وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ » أى أخفوها أسفاً على ما فعلوا من الظلم . وضمير (أسروا) للنفوس ، المدلول عليها بـ (كل نفس) . والعدول إلى صيغة الجمع ، لتهويل الخطب ، بكون الخطب بطريق الاجتماع « لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ » أى عاينوه « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فيما فعل بهم من العذاب ، لأنه جزاء ظلمهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٦] (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إعلام بأن له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق ، وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يغتر به المغترون ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى تزكية لنفوسكم بالوعد والوعيد، والإنذار والبشارة ، والزجر عن الذنوب الموبقة فى العقاب ، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب ، لتعملوا على الخوف والرجاء « وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ » أى القلوب من أمراضها ، كالشك والنفاق ، والغل والغش ، وأمثال ذلك ، بتعليم الحقائق ، والحكم الموجبة لليقين ، وتصفيتها بقبول المعارف ، والتنوّر بنور التوحيد « وَهُدًى » أى لنفوسكم من الضلالة « وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى لمن آمن به ، بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

« قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ » يعنى القرآن الذى أكرموا به « وَبِرَحْمَتِهِ » يعنى الإسلام « فَبِذَٰلِكَ » أى فبمجيئهما « فَلْيَفْرَحُوا » أى لا بالأمور الفانية القليلة المقدار ، الدنيئة القدر والوقع ، « هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » أى من الأموال وأسباب الشهوات ، إذ لا ينتفع بجميعها ولا يدوم ، ويفوت به اللذات الباقية ، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون .

والفاء داخلة فى جواب شرط مقدر ، كأنه قيل : إن فرحوا بشىء فبهما فليفرحوا . أو هى رابطة لما بعدها بما قبلها ، لدلالتها على تسبب ما بعدها عما قبلها . والفاء الثانية زائدة لتأكيد الأولى ، أو الزائدة الأولى ، لأن جواب الشرط فى الحقيقة (فليفرحوا) و (بذلك) مقدم من تأخير ، وزيدت فيه الفاء للتحسين . وكذلك جوز أن يكون بدلا من قوله (بفضل الله وبرحمته) .

ثم بين تعالى أن من فضله على الناس تبيين الحرام من الحلال على ألسنة الرسل، لئلا يفتروا عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه ، كما فعل المشركون ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ لَكُم مِّنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ » أى ماخلق لكم من حرث وأنعام « فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالًا » أى أنزله تعالى رزقاً حلالا كله ، فبغضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام ، كقولهم [1] : (هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ)(مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا)[2] « قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ » فى الحكم بالتحريم والتحليل ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه « أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ » أى تختلقون الكذب . ثم بين وعيد هذا الافتراء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى فيما يفعل بهم ، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم ، حيث أبهم أمره « إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » فى إنزال الوحى وتعليم الحلال والحرام « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى هذه النعمة ، فيستعملون ما وهب إليهم من الاستعداد والعلوم فى مطالب النفس الخسيسة، ولا يتبعون ما هدوا إليه .

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٨] . (٢) ٦ / الأنعام / ١٣٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ » أى أمر ما « وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ » أى التنزيل « مِنْ قُرْآنٍ » أى سورة أو آية « وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » أى تخوضون وتندفعون فيه ، « وَمَا يَعْزُبُ » أى يغيب « عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ » أى نملة أو هباء « فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى فى دائرة الوجود والإمكان .

وقوله تعالى : وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » كلام برأسه ، مقرر لما قبله ، أى مكتوب مبين ، لا التباس فيه . والمراد بالآية البرهان على إحاطة علمه تعالى بحال أهل الأرض ، بأن من لا يغيب عن علمه شئ كيف لا يعرف حال أهل الأرض ، وما هم عليه مع نبيه ﷺ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٣] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٦٤] (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ » جمع ولىّ . وهو فى الأصل ضد العدوّ ، بمعنى المحب وجاز كونه هنا بمعنى الفاعل ، أى الذين يتولونه بالطاعة ، كقوله تعالى [٣] : « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

(١) [٥ / المائدة / ٥٦] .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وبمعنى المفعول أى الذى يتولاهم بالإكرام كقوله تعالى[١] : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقوله[٢]: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ . . .) الآية ـ وكلا المعنيين متلازمان : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من لحوق مكروه ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى من الفزع الأكبر ، كما فى قوله تعالى[٣] : (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) .

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بكل ما جاء من عند الله تعالى « وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخافون ربهم ، فيفعلون أوامره ، ويتجنبون مناهيه ، من الشرك والكفر والفواحش . ومحلُّ الموصول الرفع على أنه خبر لمحذوف ، كأنه قيل : مَن أولئك وماسبب فوزهم بذاك الإكرام؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير ، المنجيين من كل شر . أو النصب بمحذوف .

وقوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » (الْبُشْرَىٰ) مصدر إما باق على مصدريته ، والمبشر به محذوف ، أى لهم البشارة فيهما بالجنة ، وإنما حذف للعلم به من آيات أخر كقوله تعالى[٤] : (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا . . إلى قوله : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) ، وقوله تعالى[٥] : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) وإما مراد به المبشر به ، وتعريفه للعهد . كقوله سبحانه[٦] (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وقوله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ » أى لمواعيده « ذَٰلِكَ » أى بشراكم ، وهى

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٥٥] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .
(٤) [٩ / التوبة / ٢٠ و ٢١] . (٥) [٤١ / فصلت / ٣٠] . (٦) [٥٧ / الحديد / ١٢] .

الجنة ، « هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى المنال الجليل . الذى لا مطلب وراءه . كيف ؟ وقد فازوا بالجنة وما فيها ، ونجوا من النار وما فيها .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بيّن تعالى فى كتابه ، ورسولُهُ فى سنته ، أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء . وللإمام تقىّ الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، كتاب فى ذلك سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) نقتبس منه جملة يهم الوقوف عليها ، لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الولىّ والأولياء . قال رحمه الله :

إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارىّ وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال[1] : يقول الله : من عادى لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب[2] ... الحديث ـ وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء ، دل على أن من عادى وليا لله ، فقد بارز الله بالمحاربة .

وفى حديث آخر[3] : وإنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب . أى : آخذ ثأرهم ممن عاداهم ، كما يأخذ الليث الحرب ثأره. وهذا، لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ، ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع .

والولاية ضد العداوة . وأصل الولاية المحبة والقرب . وأصل العداوة البغض والبعد .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ١٦ ـ باب من ترجى له السلامة من الفتن ، حديث رقم ٣٩٨٩ (طبعتنا) . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ، حديث رقم ٢٤٤٠ . (٣) هذا الحديث لم أهتد إليه .

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، الذى بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعله الفارق بين أوليائه ، وأعدائه ، فلا يكون وليًّا لله إلا من آمن به ، وبما جاء به ، واتبعه ظاهراً وباطناً . ومن ادعى محبة الله وولايته ، وهو لم يتبعه ، فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله ، وأولياء الشيطان . وإن كان كثير من الناس يظنون فى أنفسهم أو فى غيرهم أنهم من أولياء الله ، ولا يكونون من أوليائه . فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى [١] (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ . . .) الآية . وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله، لسكناهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، فأنزل تعالى [٢] : (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) . وكما أن من الكفار من يدعى أنه ولىّ الله ، وليس وليًّا لله ، بل عدوّ له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، يقرون فى الظاهر بالشهادتين ، ويعتقدون فى الباطن ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقروا باطناً برسالته عليه السلام ، وإنما كان ملكاً مطاعاً ، ساس الناس ، برأيه ، من جنس غيره من الملوك . أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين خاصة . أو يقولون إنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى . أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ، وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة ، وهم موافقون له فيها. وأما الحقائق الباطنة ، فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها . أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . فهؤلاء كلهم كفار ، مع أنهم يعتقدون فى طائفتهم أنهم أولياء الله . وإنما أولياء الله : الذين وصفهم تعالى بولايته بقوله [٣] (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

---

(١) [٥ / المائدة / ١٨] . (٢) [٨ / الأنفال / ٣٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٦٢و٦٣].

ولا بد فى الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن . فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين . ومن آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن .

ومن الإيمان به ، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه ، فى تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه. فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ . فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ ، فهو كافر من أولياء الشيطان

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل فى مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل فى الزهد والعبادة والعلم ما بلغ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ ، فليس بمؤمن ، ولا ولىّ لله تعالى. كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبّادهم ، وكذلك المنتسبون إلى العلم والعبادة من مشركى العرب والترك والهند وغيرهم ، ممن كان من حكماء الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة فى دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به ، فهو كافر ، عدوّ لله، وإن ظن طائفة أنه ولىّ لله . كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله، كانوا مشركين، يعبدون الأصنام والكواكب. وفى أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهاد فى العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمؤمن بالرسل ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ، ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء الله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين ، وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة

الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى[١]: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) . وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات ، وخوارق العادات ، إذا لم يكونوا متبعين للرسل ، فلا بدأن يكذبوا ، وتكذبهم شياطينهم ، ولا بد أن يكون فى أعمالهم ما هو إثم وفجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع فى العبادة ، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين ، واقترنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن .

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما فى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان . وفى صحيح مسلم[٣] : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

وإذ كان أولياء الله هم (المؤمنون المتقون) ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون فى عداوة الله ، بحسب تفاضلهم فى الكفر والنفاق .

وأولياء الله على طبقتين : سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله فى عدة مواضع من كتابه العزيز . فالأبرار أصحاب اليمين ، هم المتقربون إلى الله بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكفّ عن فضول المباحات . وأما السابقون المقربون ، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢١ ـ ٢٢٣] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ . ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ و ١٠٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٠٩ و ١١٠ (طبعتنا) .

الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم ، أحبهم الرب حبًّا تاماً ، كما قال تعالى[١] : (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ) يعنى الحب المطلق .

ثم إذا كان العبد لا يكون وليًّا لله إلا إذا كان مؤمنا تقيًّا ، لهذه الآية ـ فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليًّا لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته ، وإن قدر أنه لا إثم عليه ، مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يُرْسِل إليهم رسولا ، فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين . فمن يتقرب إلى الله ، لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات ، لم يكن من أولياء الله .

وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبيّ ﷺ قال[٢] : رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبيّ حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضى الله عنها ، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول . ولكن الصبيّ المميّز تصح عباداته، ويثاب عليها عند جمهور العلماء . وأما المجنون الذى رفع عنه القلم، فلا يصحّ شيء من عباداته باتفاق العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو ، عند عامة العقلاء، لأمور الدنيا. كالتجارة والصناعة. فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء. فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعيّ، ولا ثواب ولا عقاب. بخلاف الصبيّ

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ، حديث ٢٤٤٠.

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨٦ـ كتاب الحدود ، ٢٢ ـ باب لا يرجم المجنون والمجنونة، وقال علىّ لعمر : أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق وعن الصبيّ حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ (فى ترجمة الباب) .

المميز فإنه أقوالا معتبرة فى مواضع ، بالنص والإجماع ، وفى مواضع فيها نزاع وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون وليًّا لله ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولىّ لله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوعاً من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع . فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب ، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالكهان والسحرة وعبّاد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليًّا لله ، إن لم يعلم ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبىّ ﷺ ظاهراً وباطناً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر ، دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة العامة دون الخاصة ، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى الولاية . فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلاً عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم ، من خرق عادة ، على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى . وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات ، التى هى شرط فى ولاية الله . ومن كان يجن أحياناً ، ويفيق أحياناً ، إذا كان فى حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ، ويؤدى الفرائض ، ويجتنب المحارم ، فهذا إذا جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه ، الذى أتى به فى حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون ، بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذى ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه فى حال جنونه .

فعلى هذا ، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، بل قد يأتى بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا ولىّ لله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان

مقولها من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى ، وهو لا يقوم بالفرائض بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ ، فهو كافر ؛ وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم . فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين ، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولىّ لله ، ولكن إن كان له حالة فى إفاقته كان فيها مؤمنا بالله متقيا ، كان له من ولاية الله بحسب ذلك ، وإن كان له فى حال فيه كفر أو نفاق ، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه ، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق .

فصل

وليس لأولياء الله شىء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو صفره ، إذا كان كلاهما مباحاً ، كما قيل : كم من صديق فى قباء ، وكم من زنديق فى عباء . بل يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون فى أهل القرآن ، وأهل العلم ، ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون فى التجار والصناع والزراع . وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك . ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء واسم (الصوفية) ، نسبة إلى لباس الصوف . هذا هو الصحيح ، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء وقيل إلى (صوفة بن أد) قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك، وقيل إلى أهل الصفا ، وقيل إلى الصفوة ، وقيل إلى الصفة، وقيل إلى الصف المقدم بين يدى الله تعالى. وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقيل : صفى، أو صفائى ، أو صُفى ، ولم يقل صوفى. وصار أيضا اسم الفقراء يعنى به أهل السلوك، وهذا عرف حادث وقد تنازع الناس: أيما أفضل : مسمى الصوفى

أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً : أيما أفضل ؟ الغنيّ الشاكر ، أو الفقير الصابر ؟ والصواب فى هذا كله ما قاله تبارك وتعالى[١] : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) . وفى الصحيح[٢] من أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه سئل : أىّ الناس أفضل ؟ قال : أتقاهم . فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم . وفى السنن[٣] عن النبيّ ﷺ أنه قال : لا فضل لعربىّ على عجمىّ ، ولا لعجمىّ على عربىّ ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى . وعنه أيضاً ﷺ أنه قال[٤] : إن الله تعالى أذهب عنكم عُبِّيَّة[٥] الجاهلية وفخرها بالآباء . الناس رجلان : مؤمن تقىّ ، وفاجر شقىّ .

فصل

وليس من شرط ولىّ الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ، مما نهى الله عنه . ويجوز أن يظن فى بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتكون من الشيطان لبّسها عليه ، لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٦٨ (طبعتنا) .

(٣) لم أهتد إلى هذا الحديث فى السنن . ولكن وجدته فى مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٤١١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١١١ ـ باب فى التفاخر بالأحساب ، حديث رقم ٥١١٦ .

(٥) العبية بضم العين وكسرها . الكبر والفخر والنخوة . اهـ قاموس.

وما استكرهوا عليه ولم يؤثم النبيّ ﷺ المجتهد المخطئ ، بل جعل له أجرا على اجتهاده ، وجعل خطأه مغفورا له . ولهذا لما كان ولىّ الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله مَن هو ولىّ الله ، إلا أن يكون نبيًّا ، بل ولا يجوز لولىّ الله أن يعتمد على ما يلقى إليه فى قلبه ، إلا أن يكون موافقا ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ ، فإن وافقه قَبِلَهُ وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه . والناس فى هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط . فمنهم من إذا اعتقد فى شخص أنه ولىّ الله وافقه فى كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية ، وإن كان مجتهدا مخطئاً ، وخيار الأمور أوساطها . وهو ألا يجعل معصوما ولا مأثوما ، إذا كان مجتهدا مخطئاً ، فلا يتبع فى كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده . والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله . وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع !

وفى الصحيحين(١) عن النبيّ ﷺ أنه قال : قد كان فى الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن كان فى أمتى أحد ، فعمر منهم . وكان عمر يقول : افتر بوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة . والمحدَّث الذى يأخذ عن قلبه أشياء ، ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبيّ المعصوم ﷺ ولهذا كان عمر رضى الله عنه يشاور الصحابة ويناظرهم ويرجع إليهم فى بعض الأمور ، وينازعونه فى أشياء فيحتج عليهم ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقررهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدَّث ملهَم

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشىّ العدوىّ رضى الله عنه ، حديث رقم ١٦٢٨ ، عن أبى هريرة . وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٣ ، عن عائشة (طبعتنا).

مخاطب فينبغى لكم أن تقبلوا منى ولا تعارضونى . فأىّ من ادعى له أصحابه أنه ولىّ الله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة ـ فهو وَهُمٌ مخطئون . ومثل هذا من أضل الناس. فعمر بن الخطاب رضى الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقول ، هو وهم ، على الكتاب والسنة. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم . ولذا قال الجنيد : علمنا هـــذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو عثمان النيسابورىّ : من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ، لقوله تعالى[1] : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) . وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

فأولياء الله تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التى دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، وشرائع الإسلام . فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التى يحبها الشيطان ؛ أو يأوى إلى الحمّامات والحشوش التى تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التى هى خبائث وفواسق . أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التى يحبها الشيطان . أو يدعو غير الله ، فيستغيث بالمخلوقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين . أو يلابس الكلاب أو النيران ، أو يأوى إلى المزابل ، والمواضع النجسة ، أو يأوى إلى المقابر ، لا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغانى والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان ، على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن ـ انتهى ملخصا ـ

(١) [٢٤ / النور / ٥٤] .

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه ، ومطالعته بالحرف . ففيه من الفوائد ما لا يوجد فى غيره ، فرحم الله جامعه ، وجزاه خيراً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » تسلية للنبى ﷺ عما كان يسمعه من تآمرهم فى إيصال مكروه له ، ومجاهرتهم بتكذيبه ، ورميه بالسحر ونحوه أى : لا تتأثر بقولهم ، وشاهد عز الله وقهره ، لتنظر إليهم بنظر الفناء وترى أعمالهم وأقوالهم ، وما يهددونك به كالهباء فمن شاهد قوة الله وعزته يرى كل القوة والعزة له ، لا قوة لأحد ولا حول . فقوله تعالى [١] (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ) تعليل للنهى على طريقة الاستئناف ، كأنه قيل : مالى لا أحزن ؟ فقيل : إن العزة لله ، أى الغلبة والقهر فى ملكته وسلطانه ، لا يملك أحد شيئاً منها أصلاً ، لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم ، وينصرك عليهم (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) [٢] (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) [٣] . وقوله (هُوَ السَّمِيعُ) أى لأقوالهم فيك ، فيجازيهم (الْعَلِيمُ) أى لما ينبغى أن يفعل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى كلهم تحت ملكته وتصرفه وقهره ، لا يقدرون على شىء بغير إذنه ومشيئته وإقداره إياهم . وقوله « وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَا يَخْرُصُونَ » تأكيد

(١) [٤ / النساء / ١٣٩] . (٢) [٥٨ / المجادلة ٢١] . (٣) [٤٠ / غافر / ٥١] .

لما سبق من اختصاص العزة به تعالى ، لتزيد سلوته صوات الله عليه وبرهان على بطلان ظنونهم وأقوالهم المبنية عليها . وفى (ما) من قوله (وما يتبع) وجهان :

أحدهما ـ أنها نافية ، و(شركاء) مفعول (يتبع) ومفعول (يدعون) محذوف لظهوره. أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، شركاء فى الحقيقة ، وإن سموها شركاء لجهلهم، فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر. ويجوز أن يكون (شركاء) مفعول (يدعون)، ومفعول (يتبع) محذوف ، لانفهامه ، من قوله (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) . أى ما يتبعون يقيناً ، إنما يتبعون ظنهم الباطل .

والوجه الثانى ـ أنها استفهامية ، منصوبة بـ (يتبع)،و (شركاء) مفعول (يدعون) . أى : أىّ شىء يتبع هؤلاء ؟ أى : إذا كان الكل تحت قهره وملكته فما يتبعون من دون الله ليس بشىء ، ولا تأثير له ولا قوة ، إن يتبعون إلا ما يتوهمونه فى ظنهم ، ويتخيلونه فى خيالهم ، وماهم إلّا يُقدِّرُون وجودَ شىء لا وجود له فى الحقيقة .

ثم نبه تعالى على انفراده بالقدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدل على توحده سبحانه باستحقاق العبادة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى خلقه لكم لتستقروا فيه من نَصَبِكم وكلالكم « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى مضيئاً ، تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم.

قيل : الآية من باب الاحتباك ،والتقدير: جعل الليل مظلماً لتسكدوا فيه،والنهار مبصراً لتتحركوا فيه لمصالحكم ، فحذف من كل من الجانبين ماذكر فى الآخر ، اكتفاء بالمذكور عن المتروك ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجازىّ ، كقوله : * ما ليل المحب بنائم *

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى الجعل المذكور « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » أى هذه الآيات ونظائرها، سماعَ تدبر واعتبار .

ثم شرع فى نوع آخر من أباطيلهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ » تنزيه له عن أن يجانس أحدا ، أو يحتاج إليه ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء « هُوَ الْغَنِيُّ » أى الذى وجوده بذاته ، وبه وجود كل شىء ، فكيف يماثله شىء ؟ ومَنْ له الوجود كله ، فكيف يجانسه شىء ؟ والجملة علة لتنزيهه ، وإيذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إماللتقوّى به،أو لبقاء نوعه « لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تقرير لغناه . أى فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً « إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا » أى : ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن ، توضيح لبطلانه ، بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض . أى ليس بعد هذا حجة تسمع . والمراد تجهيلهم ، وأنه لا مستندلهم سوى تقليد الأوائل ، واتباع جاهل لجاهل .

تنبيه :

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً .

قال الإمام ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : إنه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطاناً.

قال ابن عباس رضى الله عنه : كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : (إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا » ، يعنى ماعندكم من حجة بما قلتم،إن هو إلا قول على الله بلا علم . وقوله تعالى[1]: (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) [٥٣ / النجم / ٢٣] .

بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) ، يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً ، بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم . وقوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ) ، يعنى حجة واضحة . إلا موضعاً واحداً اختلف فيه ، وهو قوله : (مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) ، فقيل : المراد به القدرة والملك ، أى ذهب عنى مالى وملكى ، فلا مال لى ولا سلطان . وقيل : هو على بابه ، أى انقطعت حجتى وبطلت ، فلا حجة لى . والمقصود : أن الله سبحانه سمى عِلْم الحجة سلطاناً ، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العِلْم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن. فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه ، إن لم يكن معه علم يساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة،ومن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما لضعف حجته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل قاهرة له ـ انتهى ـ .

« أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ » توبيخ وتقريع على جهلهم . قال الزمخشرىّ : لما نفى عنهم البرهان ، جعلهم غير عالمين ، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه لقائله ، فذاك جهل وليس بعلم .

وقال أبو السعود : فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها ، فهى جهالة ، وأن العقائد لابد لها من برهان قطعىّ ، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[٧٠] (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » باتخاذ الولد ، وإضافة الشركاء « لَا يُفْلِحُونَ » أى لا يفوزون بمطلوب أصلا . « مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا » مبتدأ خبره محذوف ، أى لهم تمتع يسير فى الدنيا « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى بالموت « ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى بسبب كفرهم . والآية لبيان أن ما يتراءى من فوزهم بالحظوظ الدنيوية ، بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح . كأنه قيل : كيف لا يفلحون ، وهم فى غبطة ونعيم ؟ فقيل : هو متاع يسير فى الدنيا ، وليس بفوز بالمطلوب .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ)

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » أى خبره الذى له شأن وخطر ، مع قومه المغترين بعزة الأموال والأعوان ، ليتدبروا ما فيه من صحة توكله على الله ، ونظره إلى قومه ، بعين عدم المبالاة بهم ، وبمكايدهم ، وزوال ما تمتعوا به من النعيم ، بإغراقهم بالطوفان ، فلعلهم يكفّون عن كفرهم ، وتلين أفئدتهم ، ويستيقنون صحة نبوتك « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ » أى شق وثقل « عَلَيْكُمْ مَقَامِي » أى مكانى ، يعنى نفسه ، أو مكثى بين أظهركم مددا

طوالا،ألف سنة إلاخمسين عاما أو قيامى بالدعوة إلى الله،من رؤيتكم ذلتى بقلة الأموال والأعوان ، ومنع عزتكم بهما عن الانقياد لى « وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ » أى بحججه وبراهينه ، أو تخويفى بعذابه « فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ » أى اعتمدت فى دفع ما قصدتمونى به « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ » أى شأنكم فى إهلاكى « وَشُرَكَاءَكُمْ » يعنى آلهتهم وهو تهكم بهم ، أو نظراءهم فى الشرك . و(الواو) بمعنى مع. أو معطوف على (أمركم) بحذف المضاف، أى : وأمر شركائكم . أو منصوب بمحذوف ، أى ادعو شركاءكم ، وذلك لأن (أجمع) يتعلق بالمعانى . يقال : (أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه) « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » أى مستورا . من (غمه ، إذا ستره) بل مكشوفا تجاهرونى به « ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ » أى أدوا إلىّ ذلك الأمر الذى تريدون بى « وَلَا تُنْظِرُونِ » أى ولا تمهلونى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان بما جئتكم به « فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » أى جُعْلٍ على عظتكم ، أى فلا باعث لكم على التولى والنفور « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ » أى ماثوابى على التذكير إلاعليه تعالى،يثيبنى به،آمنتم أو توليتم « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى المستسلمين له وحده بالإيمان به ، ونبذ كل معبود دونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَكَذَّبُوهُ » يعنى نوحاً بما جاءهم ، عناداً بعد أن قامت عليهم الحجة ، فحقت عليهم كلمة العذاب ، وأرسل عليهم الطوفان ، « فَنَجَّيْنَاهُ » أى من الغرق « وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ » أى خلفاء عن المغرقين وعمار الأرض « وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ » أى منتهى أمرهم . والمراد بـ (المنذرين) المكذبين . والتعبير به إشارة إلى إصرارهم عليه ، حيث لم يفد الإنذار فيهم . وقد جرت السنة الربانية أن لا يهلك قوم بالاستئصال إلا بعد الإنذار ، لأن من أنذر فقد أعذر . وفى الأمر بالنظر تهويل لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ ، وتسلية له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد نوح « رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ » يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ، « فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الدالة على صدقهم ، المفيدة هدايتهم « فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تعودهم تكذيب الحق ، وتمرنهم عليه . لأنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية ، مكذبين بالحق ، فحالهم بعدها ، كحالهم قبلها . هذا على أن ضمير (كانوا) و(كذّبوا) لقوم الرسل . وَجَازَ عَوْدُ ضمير (كانوا) لقوم الرسل ، و (كذّبوا) لقوم نوح . أى ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أى بمثله . « كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » أى المجاوزين مقتضيات حقائق الأشياء ، بخذلانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد هؤلاء الرسل « مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَمَلَئِهِ بِآياتِنا » يعنى التسع « فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ » أى كفاراً ذوى آثام عظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هٰذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)

« فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا » يعنى الآيات المزيحة للشك «قالُوا» يعنى من فرط التمرد « إِنَّ هٰذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » أى تلبيس ظاهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قالَ مُوسىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

«قالَ مُوسىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ» أى على وجه لم يترك لكم شبهة، مقالتكم الحمق ، من أنه سحر، فحذف المحكىّ المقول لدلالة الكلام عليه . ثم قال : « أَسِحْرٌ هٰذا» استفهام إنكار من قول موسى لا من قولهم . فهو مستأنف لإنكار كونه سحراً ، وتكذيب لقولهم ، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ . وليس (أَسِحْرٌ هٰذا) مقولهم ، لأنهم بتّوا القول بأنه سحر ، فكيف يستفهمون عنه ؟ ـ كذا قيل ـ .

ولا أرى مانعاً من أن يكون مقولهم ،والهمزة وسطت مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من الاستفهام ، ومن لطائفها الاحتراس عن إيهام فاعلية سحر لـ (جاءَكُمْ) بادئ بدء . وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب . أو الهمزة ومدخولها من مقولهم الأول ، حين فوجئوا بخارقة موسى ، وقولهم المذكور قَبْلُ (إِنَّ هٰذا لَسِحْرٌ) حكاية لقولهم الذى بتّوا عليه أمرهم . ثم رأيت الناصر فى (الانتصاف) أشار لهذا حيث قال :

وأما القراءة الثانية ـ يعنى قراءة آلسحر ـ على الاستفهام ، ففيها ـ والله أعلم ـ إرشاد إلى أن قول موسى أوّلاً : (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذا)حكاية لقولهم، ويكون

(أَسِحْرٌ هَٰذَا) هو الذى قالوه . ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا « إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » ، وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدأوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواطن أبتّ من الإخبار. ألا ترى أنهم يقولون فى قوله : * أأنتِ أمّ سالم * أبلغ فى البت من قوله مخبراً (أنت أم سالم) . ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار ، ودعوى أنه سحر ، فقالوا : (إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثانى، ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما ألا يكونوا قالوا سوى : (أَسِحْرٌ هَٰذَا) على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله ؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار ، وبتّ القول أنه سحر ، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بعبارة أخرى . وحكاية القصص المتلوّة فى الكتاب العزيز بصيغ مختلفة ، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعانى.

وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً فقال : ما جئتم به أالسحر (على قراءة الاستفهام) قرضاً بوفاء على السواء . والذى يحقق لك أن الاستفهام والإخبار فى مثل هذا المعنى مؤداهما واحد ، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام (ما جئتم به السحر) على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على ما اقتضته القراءتان وهو قول واحد ، دل أن مؤدى الأمرين واحد ، ضرورة صدق الخبر .

وإنما حمل الزمخشرىّ على تأويل القول بالتعييب، أو إضمار مفعول (تقولون) استشكالُ وقوع الاستفهام ، محكيًّا بالقول ، والمحكى عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافى بين الأمرين .

قال الناصر : فشدّ بهذا الفصل عرى التمسك ، فإنه من دقائق النكت ، والله الموفق .

وقوله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرونَ » من كلام موسى قطعاً ، أتى به تقريراً لما سبق، لأنه لما استلزم كونُ الحق سحراً ، كونَ من أتى به ساحراً ، أكد الإنكار السابق ، وما فيه من التوبيخ والتجهيل ، بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا » أى لموسى « أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا » أى لتصرفنا « عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا » يعنون عبادة الأصنام « وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ » أى الملك والسلطان « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ » أى لتبقى عزتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ » أى حفظاً لعزته ،ودفعاً لتعزز موسى « ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » أى ماهر فى فنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » أى من أصناف السحر. قال بعضهم : جواز الأمر بالسحر لدحضه ، وكذلك طلب إيراد الشُّبه لتُحل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

« فَلَمَّا أَلْقَوْا » أى عصيّهم وحبالهم ليضاهوا معجزة موسى بعصاه « قَالَ مُوسَىٰ

مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ » أى هو السحر ، لا ما جئتكم به مما سميتموه سحراً « إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ » أى سيمحقه بالكلية بمعجزتى ، فلا يبقى له أثر « إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » أى بل يسلط عليه الدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » أى يثبته ويقويه بها « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

« فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ » معطوف على مقدر معلوم من مواقع أخر ، أى[1] (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) الخ . قيل : الضمير من (قومه) لفرعون ، وهم ناس يسير من قومه ، آمنوا به سرًّا . والأظهر أنهم قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل ، الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب ، فهم الذين آمنوا به « عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ » أى يعذبهم « وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ » أى مستكبر « فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحد بالظلم والفساد ، وبادعاء الربوبية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَى » أى تطميناً لقلوبهم ، وإزالة للخوف عنهم « يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ

(١) [٢٦ / الشعراء / ٤٥] .

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا » أى فإليه أسندوا أمركم فى العصمة مما تخافون ، وبه ثقوا ، فإنه كافيكم (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[1] وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أى مخلصين وجوهكم له .

قال القاشانىّ : جعل التوكل من لوازم الإسلام ، وهو إسلام الوجه لله تعالى ، أى إن كمل إيمانكم ويقينكم ، بحيث أثر فى نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ، لزم التوكل عليه ؛ وإن أريد (الإسلام) بمعنى الانقياد ، كان شرطاً فى التوكل ، لا ملزوما له . وحينئذ يكون معناه : إن صح إيمانكم يقيناً فعليه توكلوا ، بشرط أن تكونوا منقادين . كما تقول : إن كرهت هذا الشجر فاقلعه إن قدرت ـ انتهى ـ .

وقال الكرخىّ : قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) أى منقادين لأمره . فقوله : (فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) جواب الشرط الأول . والشرط الثانى وهو (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) شرط فى الأول . وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا فى الوجود ، فالشرط الثانى شرط فى الأول. ولذلك لم يجب تقديمه على الأول . قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدما ، والمتقدم يجب أن يكون متأخراً . مثاله: قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً. فمجموع قوله: (إن دخلت الدار فأنت طالق) مشروط بقوله (إن كلمت زيداً) والمشروط متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ ، متقدماً فى المعنى ، وأن يكون المتقدم فى اللفظ ، متأخراً فى المعنى . فكأنه يقول لامرأته : حالَ ما كلمت زيداً إن دخلت الدار فأنت طالق . فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيداً لم يقع الطلاق . فقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ ...) الخ يقتضى أن يكون كونهم مسلمين ، شرطاً لأن يصيروا مخاطبين بقوله (إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه: إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل. والأمر كذلك، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام،

(١) [٦٥ / الطلاق / ٣] .

وهو الانقياد لتكاليف الله، وترك التمرد والإيمانُ عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره . وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى ، ويحصل فى القلب نور التوكل على الله تعالى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى موضع فتنة لهم ، أى عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا . قال الحاكم : دلت على حسن السؤال بالنجاة من الظلمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى من كيدهم ، ومن شؤم مشاهدتهم ، والمعبودية لهم .

قال القاضى : وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى له أن يتوكل أولا ، لتجاب دعوته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا » أى اتخذا بها بيوتاً مباءة تلازمونها لتجتمع كلمتكم فى شأنكم « وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً » أى مصلى « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى فى بيوتكم . قال بعضهم : كانوا خائفين . وفى ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف . « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصرة فى الدنيا ، والجنة فى العقبى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى يدعو الله تعالى فى إذهاب عزة فرعون « رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً » أى ما يتزين به من اللباس والمراكب والحلىّ « وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ » أى بالتكبر عليك وعلى آياتك ورسلك . وقوله : (لِيُضِلُّوا) متعلق بـ (ءَاتَيْتَ) ، وأعيد (رَبَّنَا) توكيداً . و (لام) (لِيُضِلُّوا) لام العاقبة والصيرورة. أى: آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك ، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك . وتجويزُ جعل اللام للعلة استدراجاً . أو لام الدعاء عليهم بذلك ـ توسع فى غير متسع ، ونبوّ عن لطف المساق وسره ؛ فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعناد أخذ فى الدعاء عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدى دعائه ما دفعه واضطره إلى الابتهال ، لتحق إجابته . ولذا ، بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم ، وعتوهم على المحسن بها تمهيدا لقوله : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ » أى أهلكها ، لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك وأصل (الطمس) محو الأثر والتغيير « وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى اجعلها قاسية ، واطبع عليها ، حتى لا تنشرح للإيمان « فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى يعاينوه ويوقنوا به ، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك . وقوله : (فَلَا يُؤْمِنُوا) جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهى .

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذى تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا يجىء منهم شىء . كما دعا نوح عليه السلام

فقال[1] : (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) . ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التى شركه فيها أخوه هارون ، كما أخبر بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٩] (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« قَالَ » تعالى « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » أى على أمرى ، ولا تعجلا ، فإن مطلوبكما كائن فى وقته لا محالة « وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى فى الاستعجال، أو عدم الوثوق بوعده تعالى ، أو يعنى فرعون وقومه ، بقوله سبحانه :

ثم أشار تعالى إلى إجابته دعاءهما فى إهلاك فرعون وقومه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ » أى لحقهم « فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا » أى لأجل البغى عليهم والاعتداء « حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ » رجو النجاة من الغرق « آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائيليين من عبوديته ، ويأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليعبدوا ربهم ، أبى وتمرد ، فضربه الله وقومه بالآيات التسع ، كما

---

(١) [٧١ / نوح / ٢٦ و ٢٧] .

تقدم فى سورة (الأعراف) ، فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر ، فارتحل بنو إسرائيل جميعاً بمواشيهم وأثاثهم ، ثم ندم فرعون وملؤه على إطلاقهم من خدمتهم ، فاشتد فرعون وجنوده فى أثرهم ليردهم ، فأدركهم وهم نازلون عندالبحر ، فرهب الإسرائيليون من مقدمه، وضجوا إلى موسى ، فسكن روعهم ، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوّهم ، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فانشق ودخل بنو إسرائيل فى وسطه على اليبس الذى جعله تعالى آية كبرى ، ونفذوا منه إلى شاطئه ، وتبعهم فرعون وجنوده . حتى إذا توسطوا البحر ، مدّ موسى يده على البحر،فارتد إلى ما كان عليه ، وغرق فرعون بمن معه. ولما أحس بالغرق ، لاذ إلى الإيمان يبغى النجاة ، فقيل له :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

« آلْآنَ » أى تؤمن وتسلم لتنجوا من الغرق « وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ » أى كفرت بالله من قبل الغرق ، « وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » أى بالضلال والإضلال ، والظلم والعتوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى.

[٩٢] (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ)

« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ » أى نخرجك من البحر بجسدك الذى لا روح فيه . فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطىء البحر ميتاً وفى التعبير عن إخراجه من القعر إلى الشاطىء (بالتنجية) التى هى الخلاص من المكروه ، تهكم واستهزاء . « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ » من الأمم الكافرة « ءَايَةً » أى عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى . « وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

تنبيه :

قال الشهاب الخفاجيّ فى (العناية) : لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار ، كما يدل عليه صريح الآية[1] : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) . وأما ما وقع فى (الفصوص) من صحة إيمانه ، وأن قوله (ءَامَنتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ) إيمان بموسى عليه السلام ـ فمخالف للنص والإجماع ، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال الدوانيّ رحمه الله . وله رسالة فيه طالعتها ، وكنت أتعجب منها حتى رأيت فى (تاريخ حلب) للفاضل الحلبيّ أنها ليست له ، وإنما هى لرجل يسمى محمد بن هلال النحويّ . وقد ردها القزوينيّ ، وشنع عليه وقال : إنما مثاله مثال رجل خامل الذكر ، لما قدم مكة بال فى زمزم ليشتهر بين الناس ، كما فى المثل (خالف تعرف) وفى (فتاوى ابن حجر رحمه الله) أن بعض فقهائنا كفّر من ذهب إلى إيمان فرعون ولذا قيل إن المراد بفرعون (فى كلامه) النفس الأمارة ، وهذا كله مما لا حاجة إليه ـ انتهى كلام الشهاب ـ .

أقول : ذكر شيخنا العطار رحمه الله فى كتابه (الفتح المبين فى رد اعتراض المعترض على محيي الدين) خاتمة فى بطلان ما نسب إلى هذا العارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته ، قال رحمه الله :

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محيي الدين رضى الله عنه قال بإيمان فرعون ونجاته . والحال أنه ليس كذلك ، كما ستطلع عليه من النقل عنه . نعم ، بحث فى صحة القول بإيمان فرعون ، ونجاته وعدمها ، حيث الأخذ من الآيات القرآنية ، فكان ذلك منه مجرد بحث فى الدليل لا غير ، وما كان هذا قولا بإيمانه قطعياً . وقد بنى مسألة نجاة فرعون وإيمانه على أصلين من أصوله ، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام .

الأصل الأول ـ فى بيان حقيقة إيمان اليأس ، فإيمان اليأس عنده ، وعند جم غفير من

(١) [٤٠ / غافر / ٨٥] .

العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخىّ ، كحال المحتضر لا غير ، فى هذه الحالة لا ينفع الإيمان ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم . وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيويًّا أو أخرويًّا. فالإيمان فى أى حالة من الحالتين لا ينفع . وعند هذا العارف وجماعة : أن رؤية العذاب الدنيوىّ لا تمنع صحة الإيمان ، وإن أوجبت الهلاك فى الدنيا ، فإن سنة الله قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيوىّ لمن رأى هذا العذاب ، وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة ، إلا قوم يونس ، فإنه تعالى نجاهم منه ، كما ذكره تعالى .

الأصل الثانى ـ من أصوله رضى الله عنه : أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان ، وإن تلفظ بها لا يقصده ، فلابد من تكذيب الله تعالى له ، ولو بالحكاية عنه ، كما قال تعالى[١] : (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) وكما قال[٢] : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) فكذبهم تعالى فى دعواهم . وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى[٣] : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ *وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) فكلمة « حَتَّىٰ » للغاية . فنفّيا تعالى إيمانهم إلى حين رؤية العذاب الأليم ، وهو الأخروىّ لا غير ، فإنه هو الذى يوصف بالأليم . ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك ، فوقوعه منهم قبله قصدا ، محال بنص هذه الآية .

إذا تقرر هذان الأصلان ، فلنرجع إلى ما قاله هذا الحبر فى شأن فرعون فى (الفتوحات المكية) وفى (الفصوص) : فالذى ذكره فى (الفتوحات) عند ذكره طبقات أهل النار فيها : هو أن فرعون من أهل النار ، حيث قال فى هذا البحث : كفرعون وأضرابه ، فخص له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبّدون فيها . وأشار إلى كفره فى موضع آخر منها عند ذكره هـذا الحديث وهو[٤] : أعوذ بك منك ؟ قال : استعاذ رسول الله ﷺ من مقام

---

(١) [٢/البقرة / ١٤] . (٢) [٤٩ / الحجرات/١٤] . (٣) [١٠/يونس/٩٦و٩٧] .
(٤) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) .

الاتحاد الذى كان عليه فرعون وهو قوله [1]: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ) وعلى هذه الإشارة وما تقدم ، يكون فرعون كافراً عنده ، كما هو عند عامة الخلق . وعلى هذا لا إشكال ولا كلام .

بقى القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل ، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعيا ، وليس لهم هذا القطع ، لما أن الدليل القرآنىّ يعطى خلافه؛ قال تعالى (فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ . . .) الآية ـ فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات : اثنتان فى الجناب الإلهى ، والأخيرة تعمه ، والإيمان بموسى حيث قال : (وأنا من المسلمين) ولم يكن مسلما إلا من جمع بين الإيمان بالله وبرسوله .

ثم قال شيخنا رحمه الله : وفى (الفتوحات) و (الفصوص) ما حاصله : أن إيمانه لم يكن عند اليأس ، لا على مذهبه ومذهب من وافقه ، ولا على مذهب غيره . أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوىّ ، لا عند احتضاره ، والإيمانُ عند رؤية العذاب الدنيوىّ لا يعد يأساً عنده ، وعند جمع . وأما على الثانى ، فلأن قول فرعون ما كان عند يأسه من الحياة الدنيوية ، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة فى الطريق اليبس التى كانت للمؤمنين ، وقد شاركهم فى إيمانهم ، فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين ، المشاهدة له ، وما علم سنة الله فى خلقه بأنه لابد من الهلاك الدنيوىّ لمن كانت حالته كذلك . والهلاك فى الدنيا لا يدل على عدم النجاة فى الآخرة ، وهو ظاهر . وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين : فالأول بيقين ، والثانى بحسب ما يظهر ، ولا بعد بأنه كان طامعاً فى النجاة بيقين ، لعموم المشاركة . هذا ، وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية ، والأخذ بالظواهر من الآيات ، ومع ذلك فلما ذكر البحث فى شأن إيمان فرعون ونجاته ، مع من قال بخلافهما ، قال : إن الوقف فى شأن إيمان فرعون هو الأسلم ، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه ، وهذا منه صريح فى أنه كان باحثاً فى إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآنىّ بحثاً ، لا جازماً بهما ـ انتهى ملخصاً ـ .

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٤] .

ثم أنبأ تعالى عما أنعم به على بنى إسرائيل إثر نعمة إنجائهم من عدوّهم وإهلاكه ، وإخلالهم بشكرها وأداء حقوقها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ » أضيف المكان إلى الصدق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً ، أن تضيفه إلى الصدق . تقول : رجل صدق . وقدم صدق . وقال تعالى[١] : (مُدْخَلَ صِدْقٍ) و[٢](مُخْرَجَ صِدْقٍ) إذا كان عاملاً فى صفة صالحاً للغرض المطلوب منه ، كأنهم لا حظوا أن كل ما يظن به فهو صادق .

وقوله تعالى « وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ » وهى المنّ والسلوى فى التيه وبعده ، مما فاض عليهم من الأرض التى تدرّ لبناً وعسلاً « فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى ما تفرقوا على مذاهب شتى فى أمر دينهم ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحى ، الذى يتلونه . أى : وما كان حقهم أن يختلفوا ، وقد بيّن الله لهم ، وأزاح عنهم اللبس . ونظير هذه الآية ، فى النعى عليهم اختلافهم ، قوله تعالى[٢] : (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) . وقوله جل ذكره[٣] (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) . وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف فى الدين ، والتفرق فيه .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٠] . (٢) [٩٨ / البينة / ٤] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » من قصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ » أى التوراة « مِنْ قَبْلِكَ » فإنه عندهم على نحو ما أوحى إليك « لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » أى الشاكين فى أنه منزل من عنده .

تنبيه :

لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه ، فإن صدق الشرطية لا يقتضى وقوعها ، كقولك : (إن كانت الخمسة زوجاً ، كانت منقسمة بمتساويين) . والسر فى مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر . ولذا أكثر تعالى فى كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجعة . أو السر هو الاستدلال على تحقيق ماقص ، والاستشهاد بما فى الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيه . أو وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم ، بصحة ماأنزل إلى رسول الله ، صلوات الله عليه ، تعريضاً بالمشركين . أو تهييج الرسول ، صلوات الله عليه ، وتحريضه ليزداد يقيناً ، كما قال الخليل صلوات الله عليه[1] (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) . وقد روى أنه ﷺ قال حين نزول الآية : لا أشك ولا أسأل ـ أخرجه عبد الرازق وابن جرير[2] عن قتادة ـ أو الخطاب له ﷺ ، والمراد غيره ، على حد : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) . وفيه من قوة التأثير فى القلوب ما لا مزيد عليه ، بمثابة

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٠] . (٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

مالو خاطب سلطان عاملًا له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلك أفعل فى النفوس . أو الخطاب لكل من يسمع . أى : إن كنت أيها السامع فى شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ... وأيد هذا بقوله تعالى بعدُ[1] :(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي . . .) فكأنه أشار إلى أن المذكور فى أول الآية رمزًا، هم المذكورون بعدُ صراحةً وفى الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها ، بمقادحة العلماء المنبهين على الحق .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » هو أيضاً من باب التهييج والإلهاب والتثبيت . وأجرى بعضهم هاهنا قاعدة ، فقال : النهى عن كل شىء ، إن كان لمن تلبس به فمعناه تركه ، وإن كان لغيره فمعناه الثبات على عدمه ، والا يصدر منه فى المستقبل كما هنا ـ انتهى ـ أو يأتى الوجهان الأخيران قبل هنا أيضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٩٧] (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ» أى قوله الكريم، وأمره بعذابهم، كما قال[2]: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

« لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى كدأب آل فرعون وأضرابهم . أى : وعند رؤية العذاب يرتفع التكليف ، فلا ينفعهم إيمانهم .

(١) [١٠ / يونس / ١٠٤] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ » أى فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته ، كما فعل فرعون . وفى هذا التخصيص معنى التوبيخ ، « فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا » بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ، « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » أى لكنّ قومه « لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى إلى آجالهم .

هذا ، وقد جوز أن تكون الجملة فى معنى النفى ، لتضمن حرف التحضيض معناه ، فيكون الاستثناء متصلاً ، لأن المراد من القرى أهاليها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . ويؤيده قراءة الرفع على البدل .

روى أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى ، من أرض الموصل ، وكانت مدينة عظيمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، وهى قصبة بلاد الأشوريين ، بانيها أشور أو نينوس بن نمرود ، وكلاهما من أولاد بنى نوح ، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها . والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع أسوارها كان مائة قدم ، ودائراتها ستون ميلاً ، وهى محصنة بألف وخمسمائة قلعة ، طول الواحدة منهن مائتا قدم . قيل : أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف . وخلفاء نمرود فى هذه المدينة دأبوا على تحسينها ، وتوسيع بنائها . وقويت شوكة الأشوريين فى تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا ، فتجبّروا وتمردوا . وكانوا كلما ظفروا فى غاراتهم يستغرقون فى النهب والمظالم ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، واسمه فى العبرية (يونان) ، لينذرهم بأنهم لكفرهم وافترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً ، فتنقلب بهم نينوى . ثم خرج يونس من بينهم فأصحر . فلما فقدوه ، وبلغ أميرَهم قولُ يونس ،

تخوفوا نزول العذاب الذى أُنذروا به ، فقذف الله فى قلب أميرهم الإيمان والتوبة ، فنزل عن عرشه ، وألقى عنه حلته ، والتف بمسح،وجلس على التراب ، وآمن بالله ، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام ، فلا يذوق أحدٌ طعاماً ولا شراباً ، وألا ترعى البهائم ولا تسقى ، وأن يلبس الناس المسوح ، صغيرهم وكبيرهم ، وأن يجتمعوا فى صعيد واحد ، يجهرون بتسبيح الله ، والإنابة إليه ، والاستغفار له ، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجرم ، وأن يحضروا أطفالهم وذويهم ومواشيهم معهم . ففعلوا ، وتضرعوا إلى الله ، واستكانوا لجلاله ، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيّهم . فلما علم منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب ورحمهم . وسيأتى فى (سورة الصافات) زيادة فى نبأ يونس عما هنا .

تنبيهات :

الأول ـ يروى بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم ، وغشيهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ، وغامت السماء غيماً أسود، ونحو هذا . وليس فى التنزيل بيان لهذا ، ولا فى صحيح السنة . وكأن من زعمه فهمه من لفظ (كشفنا) ، ولا صراحة فيه .

قال القرطبىّ : معنى (كشفنا عنهم عذاب الخزى) أى العذاب الذى وعدهم يونس أنه ينزل بهم لا أنهم رأوه حينئذ ، فلا خصوصية . أى كما روى عن قتادة أن هذا الكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة ، فإنه لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا علامته .

الثانى ـ فى الآية إشارة إلى أنه لم يوجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، إثر بعثته وإنذاره ، إلا قوم يونس . والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال تعالى[1] : (وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] .

وفى الحديث الصحيح[(١)]: عرض عليّ الأنبياء ، فجعل النبيّ يمر ومعه الفئام من الناس، والنبيّ معه الرجل ، والنبيّ معه الرجلان ، والنبيّ ليس معه أحد) .

الثالث ـ أخرج ابن أبى حاتم عن عليّ رضى الله عنه . قال : إن الحذر ، لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك فى كتاب الله : (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا . . .) الآية ـ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الدعاء يرد القضاء ، وقد نزل من السماء . اقرؤوا إن شئتم : (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ...) الآية ـ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة ، مرفوعاً، فى قوله تعالى :(إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا) قال عليه السلام : دَعَوْا ـ كذا فى الإكليل ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ » أى بحيث لا يشذ عنهم أحد « جَمِيعاً » أى مجتمعين على الإيمان ، لا يختلفون فيه . أى : لكنه لا يشاؤه لمخالفته للحكمة التى بنى عليها أساس التكوين والتشريع « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ » أى على مالم يشأ الله منهم « حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أى ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، كقوله تعالى[(٢)] : (لَيْسَ

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٦ـ كتاب الطب، ٤٢ـ باب من لم يرْقِ ، حديث ١٦٠٥ ومسلم فى : ١ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٤ ، عن ابن عباس (طبعتنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) . وفيه تسلية له ﷺ ، وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم ، كقوله تعالى[1] : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)[2] ولذا قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بإرادته وتوفيقه ، فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى الله ، « وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ » أى الخذلان « عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى حججه وأدلته ، لما على قلوبهم من الطبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

« قُلِ انْظُرُوا » أى تفكروا « مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الآيات الدالة على توحيده ، وكمال قدرته . قال السيوطىّ : فى الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد ، وترك التقليد فى الاعتقاد . « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » أى وما تنفع الآيات والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ، عمن لا يؤمن . و (ما) استفهامية أو نافية .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٣] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » أى وقائعه تعالى فيهم ، كما يقال (أيام العرب) لوقائعها ، من التعبير بالزمان عما وقع فيه ، كما يقال (المغرب) للصلاة الواقعة فيه . « قُلْ » أى تهديداً لهم « فَانْتَظِرُوا » أى ما هو عاقبتكم ، « إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)

« ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا » عطف على محذوف معلوم من السياق ، كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجى رسلنا المرسلة إليهم « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » أى من كل شدة وعذاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ » إنما أوثر الخطاب باسم الجنس ـ أعنى الناس ـ مصدراً بحرف التنبيه ، تعميما للتبليغ ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم . وعبر عما هم فيه من القطع بالشك ، للإيذان بأنه أقصى ما يمكن خطوره ،

وإلا فإن وضوح صحته ، وبرهان حقيّته أوضح من الشمس فى رائعة النهار . وقدّم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى ، إيذاناً بمخالفتهم من أول الأمر. وفى تخصيص التوفى بالذكر ، متعلقا بهم ـ ما لا يخفى من التهديد ، إذ لا شىء أشد عليهم من الموت. « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأعلى مراتب التوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً » أى مائلا عن الأديان الباطلة .

لطيفتان :

الأولى ـ إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شىء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات . أى : اصرف ذاتك وكليتك للدين ، فاللام صلة .

الثانية ـ جملة (وأن أقم) عطف على (أن أكون) . وجاز حكاية صلة (أن) بصيغة الأمر ، لأنه لا فرق فى صلة الموصول الحرفىّ بين الطلب وبين الخبر ، لأن القصد وصلها بما يتضمن معنى المصدر ، وهو يحصل بكل فعل . وقال بعضهم : إنهنا فعلا مقدراً. أى وأوحى إلىّ أن أقم ، وأنه يجوز أن تكون (أن) مصدرية ومفسرة ، لأن فى المقدر معنى القول دون حرفه ، ثم رجحه بأنه يزول فيه قلق العطف ، ويكون الخطاب فى وجهك فى محله . وردّ بأن الجملة المفسّرة لا يجوز حذفها ، ولا قلق فى هذا العطف ، وأمر الخطاب سهل ، لأنه للملاحظة المحكىّ ، والأمر المذكور معه ـ كذا فى (العناية) .

وقوله تعالى : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تهييج وحث له على عبادة الله تعالى ، ومنع لغيره ، كما تقدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا تَدْعُ » أى لا تعبد « مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ » أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إن عبدته « وَلَا يَضُرُّكَ » إن لم تعبده « فَإِنْ فَعَلْتَ » أى عبدته « فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى الضارّين لنفسك ، أو بوضع الأمر فى غير موضعه [1] (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » لما نهى تعالى عن عبادة الأوثان ، ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، بين أنه سبحانه هو الضار النافع ، الذى إن أصاب بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده ، دون كل أحد ، فكيف بالجماد الذى لا شعور به . وكذلك إن أراد بخير ، لم يردّ أحد ما يريده من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيق ، إذاً ، بأن توجه إليه العبادة دونها .

لطائف :

قيل : ذكر المس فى أحدهما ، والإرادة فى الثانى ، للإشارة إلى أنهما متلازمان ، فما يريده يصيبه ، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته . لكنه صرح فى كل منهما بأحد الأمرين ، إشارة إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى ، والضر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم ، وليس مقصوداً بالذات ، فلذا لم يعبر فيه بالإرادة .

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

وقيل : قصد الإيجاز ، فذكر فى كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله فى الأخرى ، لاقتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب ، وهو نوع من البديع يسمى احتباكاً .

قال أبو السعود : على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل (يصيب به) إظهاراً لكمال العناية بجانب الخير ، كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه . أى : يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير .

روى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمّن روعاتكم . ورواه عن أبى هريرة بمثله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

« قُلْ » أى لأولئك الكفرة الفجرة ، بعد ما بلغتهم دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنذرتهم ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » يعنى القرآن « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أى بالإيمان به ، « فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أى منفعة اهتدائه لها خاصة ، « وَمَنْ ضَلَّ » أى بالكفر به « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى فوبال الضلال عليها . والمعنى : لم يبق لكم بمجىء الحق عذر ، ولا على الله حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق ، فما نفع إلا نفسه ، ومن آثر الضلال ، فما ضر إلا نفسه . وفيه تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه ، عليه السلام ، من جلب نفع أو ضر ، كما يلوح به إسناد المجىء إلى الحق ، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته ـ أفاده أبو السعود ـ .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى بحفيظ موكول إلىّ أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير ـ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٩] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

« وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ » أى فى التبليغ ، وإن لم يهتدوا به ، « وَاصْبِرْ » أى على أذاهم فى الدعوة ، « حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ » أى لك بالنصرة عليهم والغلبة « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر ، وله الأمر من قبل ومن بعد .